أيها الراقدون حولى أعينو نى على الليل حسبةً واتئجارا
حدثونى عن النهار حديثًا أو صفوه فقد نسيت النهارا

أجل قد نسى العباس بن الأحنف النهار بعد أن طال به الليل ؛ يتعبد فى محراب حبه ، و يبكى آلام قلبه ، و يترنم بذلك الحب العفيف فى عصر امتهنت فيه العفة وابتذل الكثيرون ، واشتهر أمثال أبى نواس من الظرفاء اللاهين الذين يعبثون بأقدس عاطفة فى الوجود .

فى عصر الرشيد ظهر العباس ليدعو الناس إلى التوحيد فى الحب و يعيش حياته يقدس محبوبة واحدة ، و يبشر بهذه الوحدانية التى نمت عن روح عظيم وقلب كبير .

و إذا كان العرب فى عهودهم الأولى قد جروا على استهلال قصائدهم بالنسيب والبكاء على تلك الديار المتنقلة التى يرحل عنها أحباؤهم سعياً وراء المرعى والمطر ، و يخلفون لهم الشوق والحنين ، فإن العباس أعاد فى عهد بنى العباس سيرة الحب العذرى ، وفاق أسلافه الذين اشتهروا فى عصر الأمويين بانقطاعه حياته إلى نوع واحد من الشعر لا يكاد الباحث يجد فى شعره سواه . . شعر كان كأوراد الصوفية التى لا يملُّون ترددها ، لكنه قصره على التصوف فى الحب والتعبير عن هواه العظيم حتى فى آخر لحظات حياته ، لم ير برءه إلا فى رشفة من رضاب الحبيب ترسل له فى زجاجة ، و إذا سئل عوّده عنها فهو ينصح بأن يجيبوا أهله بأنها بعض ماء زمزم :

أَزُوَّارَ بيت اللهِ مُرُّوا بيَثْرِبٍ لحاجة مقبولِ الفؤاد كئيبِ
وقولوا لهم : يا أهل يثربَ أسعدوا على جلبٍ للحادثات جليبِ
فإنا تركنا بالعراق أخا هوى تنشَّب رهناً فى حبال شَعوبِ

به سَقَمٌ أعيا المداوين علمُه ... سوى ظنّهم من مخطىء ومصيبِ
خُدوا لىَ منها جرعةً فى زجاجةٍ ... ألا أنهـا لو تعلمون طبيبى
وسيروا فإن أدركتمُ بى حشاشة ... لها فى نواحى الصدر وجس دبيبِ
فرشُّوا على وجهى أُفِقْ من بليَّتى ... يثيبكم ذو العرش حيرُ مُثيبِ
فإن قال أهلى ما الذى جئتمُ به ؟ ... وقد يحسن التعليلَ كلُّ أديب
فقولوا لهم : جئناه من ماء زمزم ... لنشفيه من دائهِ بذَنُوبِ
وأن أنتم جئتم وقد حِيل بينكم ... وبينى بيوم للمنون عصيبِ
فرشُّوا على قبرى من الماء واندبوا ... قتيل كَعابٍ لا قتيل حُروبِ

فإذا ما مات العباس سنة ١٩٢ هـ أمر الرشيد ابنه المأمون أن يصلى عليه اعترافاً بفضله ومكانته من المجتمع والأدب والشعر .

أما مكانته فى الشعر فقد أجمع النقاد على أنه أعظم المتفوقين فى الفن الواحد وكان فنه النسيب « فلم يتجاوز الغزل إلى مديح أو هجاء ولم يكن يتصرف فى شىء من هذه المعانى[1] » . ومن اقتصر على ناحية بذاتها من الشعر لاشك أنه بالغ فيها مالا يبلغه غيره ؛ والتخصص دائماً أحد وسائل الإجادة ، وقد تخصص العباس فى أرق أنواع الشعر ولم تكن الرقة مجلوبة فى شعره بل هى نابعة من طبيعة مهذبة وقلب شديد الحساسية ونفس قد تأثرت بالبيئة التى حولها والتى شاعت فيها أسباب المدنية والحضارة . استمع إليه يردّ على خطاب :

وصحيفةٍ تحكى الضميـ ... ـرَ مليحةٍ نغماتهـا
جاءت وقد قَرِح الفؤا ... د لطول ما استبطأتها
فضحكت حين رأيتها ... وبكيت حين قَرَأتها

---

(١) الأغانى جـ ٨

عيني رأت ما أنكرتْ فتبادرت عبراتها
أظلُوم نفسي في يديْـــك حياتها ومماتها

وقد جمع إلى رقة الحديث وعذوبته : الابتكار في المعاني والتراكيب ؛ فهو يقول معبراً عن استمتاع أذنه إلى جانب نظره :

أتأذنون لصبٍّ في زيارتكم فعندكم شهوات السمع والبصر ؟

والعتاب من الفنون التي تفوَّق فيها العباس ، ولا شك في أن الرقة في مقتضيات العتاب ليبلغ قلب الحبيب و يظفر برضائه ورحمته :

كتبت فليتني مُنِّيتُ وصلًا ولم أكتب إليك بما كتبتُ
كتبت وقد شربت الراح صرفاً فلا كان الشراب ولا شربت
فلا تستنكروا غضبي عليكم فلو هنتم عليّ لَمَا غضبتُ

فهل أعذب من هـذا أو أرق شيء في تبرير المغاضبة ولطف العتاب ؟ بل إن العباس يرى أن الحب لا تدرك حلاوته بغير مغاضبة تأتي بعدها نعمة العتاب :

وأحسنُ أيام الهوى يومك الذي تروّع بالهجران فيه و بالعتبِ
إذا لم يكن في الحب سخطٌ ولا رضا فأين حلاوات الرسائل والكتبِ

لكنه يعلم جيداً الفرق بين صد الملال وصد العتاب ، وهو يفزع من صد توهمه من نوع الملال فيقول مسترحماً :

لو كنت عاتبةً لكنَّ لوعتي أملي رضاك وزرت غير مراقبِ
لكن مللتِ فلم تكن لي حيلة صدُّ الملول خلاف صدِّ العاتبِ

وهو أخيراً مشفق على وده أن تضيعه كثرة التجني ، فهو يشرح في الأبيات

التالية حبه العظيم الذى ينكره الناس و يحاولون التشكيك فيه ، و ينذر حبيبته بعاقبة الاستماع إلى الناس وكثرة التجنى :

وقد حُمِّلت من حُبِّيك ما لو ... تقسَّم بين أهل الأرض شابوا
أفيقى من عتابك فى أناس ... شهدت الحظ من قلبى وغابوا
وكنت إذا كتبت إليك أشكو ... ظلمتِ وقلتِ ليس له جواب
فعشتُ أقُوتُ نفسى بالأمانى ... أقول لكل جامحة إياب
و إن الود ليس يكاد يبقى ... إذا كثر التجنى والعتاب

ولقد كان العباس يمتلك كل المزايا التى تؤهله لأن يكون محبوباً من الناس فهو من أسرة كريمة منعمة ، حسن المنظر ، مرموق المكانة الاجتماعية لاسيما بقربه من أمير المؤمنين ، حلو الشمائل ، عذب الحديث ؛ حتى لقد وصفه أحد الناس بقوله « كان والله ممن إذا تكلم لم يحب سامعه أن يسكت ، وكان فصيحاً جميلا ظريف اللسان ، لو شئت أن تقول (كلامه شعر كله) لقلت » . . بل أن شعره كان وافر الحظ من الغناء فتناقلته المجالس وأقبل على إنشاده المغنون والقيان لعذوبة ألفاظه وجزالة تراكيبه . ومن قصائده المشهورة فى الغناء قوله :

نام من أهدى لىَ الأَرَقا ... مستريحًا زادنى قَلَقَا
لو يبيتُ الناس كلهم ... بسهادى بيِّض الحدَقا
كان لى قلبٌ أعيش به ... فاصطلى بالحب فاحترقا
أنا لم أرزق مودتكم ... إنما للعبد ما رُزقا

وكان من اليسير على العباس فى عصره أن يتخذ من الخليلات ألواناً ، وأن يكون له غير « فوز » كثيرات ومع ذلك فهو لم يحب إلا « فوزاً » هذه ، وتدلَّه فى حبها حتى بدا فى مظهر الضعف أمامها عند ما قال :

تحمَّل عظيم الذنب ممن تحبُّهُ وإن كنت مظلوماً فقل أنا ظالمُ
فإنك إلا تغفر الذنب فى الهوى يفارقك مَنْ تهوى وأنفك راغمُ

فما الذى حمله على ذلك ؟ وهل يعتبر ذلك ضعفاً ؟ أم تراه من ضرورات الحب العفيف الذى أنطقه بمثل قوله :

أتأذنون لصبٍّ فى زيارتكم ؟ فعِنْدَكُم شهوات السمع والبصرِ
لا يضمر السوء إن طال الجلوسُ به عفّ الضمير ولكن فاسقُ النظرِ

إن العفة سلبية ، لكنها عند العباس إيجابية ؛ لأنه لم يكن ممن يزهد فيه . ولقد كان فاسق النظر كما يقول ، فعِفّته إذن ليست عفة المغلوب على أمره ، بل عفة الشريف الذى يجاهد هواه ، يغالبه و يقاوم شهواته حتى لا يثقل الإثم ضميره . حتى لا تشوب صفحة أخلاقه الكريمة شائبة .

بل إنه جاهد قلبه جهاداً عنيفاً آخر لا يقل صرامة عما أخذ به نفسه من عفة الحب . . ذلك جهاد الكتمان . . وهل يخفى الحب ؟ وهل يستطيع المحبون أن يطووا أضالعهم على نيران الجوى دون بوح وحديث ودون استصراخ واستعطاف ودون اللجوء إلى وساطة الرسل وما يفضح عواطفهم ؟ لكن العباس قد نجح فى إخفاء اسم محبوبته التى رمز إليها فى شعره بفوز ، وحاور الناس فى أمرها حتى غلبهم فقال :

قد سحَّب الناسُ أذيالَ الظنون بنا وفرَّق الناس فينا قولهم فِرَقا
فجاهلٌ قد رمى بالظن غيركم وصادقٌ ليس يدرى أنه صَدَقا

بل إنه يتحمل الهجران فى سبيل الحب والحرص على من يحب فيقول :

سأهجر إلفى وهجرانها إذا ما التقينا صدود الخدودِ
كلانا محبٌّ ولكننا ندافع عن حبنا بالصدودِ

و يدّعى أنه سلا حبها إمعاناً عنه فى ستر هذا الحب و إخفائه عن الناس فيقول :

كذبتُ على نفسى فحدّثت أننى سلوتُ لكيما ينكروا حين أصدقُ

وما عن قلَى منى ولا عن ملالة ولكننى أبقى عليك وأشفقُ

لكنه فى فزع دائم بعد كل هذه التحفظات فيصرخ فى شبه يأس :

فكيف استتارى إذا ما الدموع نطقن فبُحْنَ بما أضمر

ويبدو أن هذه المبالغة فى الكتمان لم تعجب بعض معاصريه فكانت موضع تندُّر بينهم ؛ حتى أن إحدى جاراته سمت خادمة لها فوزاً للسخرية منه فقال :

سمَّت وليدتها فوزاً مغايظة عذرت لو لطمتنى ذات إسوار

وما يزال نساء من قرابتها فى كل ناحية يهتكن أستارى

وهو هنا يحدثنا أن ذوى قرباها يحاولون كشف أستار حبه ، فماذا كان نصيبه من هذا الحب ؟ يقول العباس :

ويقنعنى ممن أحبُّ كتابه ويمنعنيه : إنه لبخيل !

فياله من محب قانع يرضى من الحب برسالة تأتيه من فوز ، وهى تسرف فى الدلال فتمنعه هذا الكتاب ؛ ولعلها تعلم قيمة الكتاب . . فهو عزاء العاشق وشفاء قلبه على البعد ، وأثر الحبيب بين يديه يقرؤه ، ثم يعيد قراءته ولا يمل ترداده . وهو حين يقرأ هذا الكتاب يتمثله حاضراً بين يديه يسرُّ إليه النجوى ويستمع له ولا يشركهما أحد فى نجواها وحديثهما الموصول . . ولعل فوزاً كانت خليقة بهذا الحب العظيم ، فهى كما ينمُّ شعر العباس من العقائل النبيلات فى بغداد لها حظ من من ثقافة ، تقرأ كتبه وتكتب له ، فكان عليها حريصاً ، وعلى سرها أميناً رغم كل ما يكابد فى هذا السبيل :

عيون العائدات تراك دونى فيا حَسَدى لعينىْ مَنْ يراكِ

أريدك بالسلام فأتقيهم وأعمد بالسلام إلى سواكِ

وأكثر فيهم ضحكى ليخفى فسنّى ضاحكٌ والقلب باكِ

إنه يستعذب هذه الآلام من أجلها و يشقى بحبه فى مدينة تهب الحب من يشاء و بغير عناء . . مدينة كان طابعها الترف و كثر فيها المجون ، لـكن العباس معنى بحبه يتطهر بنيران هذا الحب الواحد الذى أطال التعبد فى محرابه ما ينوف على الأربعين عاماً . وهو لا يحاول التخلص من آلام هذا الحب أبداً لأنها آلام مقدسة . . هى سر الحياة والوجود لديه ، فإذا قال :

قلبى إلى ما ضرّنى داعى يكثر أسـقامى وأوجاعى
كيف احتراسى من عدوّى إذا كان عدوّى بين أضلاعى

فهو لا يعنى أكثر من إلقاء اللوم على قلبه . . تلك المضغة التى يقلبها الرحمن كيف يشاء دون أن يكون لنا فى الأمر حيلة ؛ حتى إنه ليقول صادقاً إنه يذهب إليها وهو يائس الرجاء منها ، لـكنه الشوق إلى حبه يدفعه :

أسأت أن أحسنت ظنى بكم والحزم سـوء الظن بالناسِ
يقلقنى الشـوق فآتيكم والقلب مملوء من اليـاسِ

إنه رجل قد فنى فى الحب ، بل هو صنعته الحب التى يؤثر الموت فى سبيلها ، وليس له فى الوجود من شغل سواها فهو يقول :

نصيرى الله منك إذا اعتديتِ وقد عذبت قلبى إذ جفوتِ
فإن يكُ ذا مغايظةً لحقـدٍ فقـد والله يا أملى أشتفيتِ
قضى بالفَتْك حبُّك فى عظامى وصيَّرنى هواك كما اشتهيتِ
فلو شاء الذى بكُم أبتلانى لعجَّل راحتى منكم بموتى

لـكن يوجد فى أشعار العباس ما يلقى ظلالًا من الشك على مدى عفته ، و يجعل القارئ يتأمل معانيها الخفية ، و يحاول أن يستشفّ منها ما يبرئ العباس من مادية الحب كقوله :

ذكرتك بالتفّاح لمـا شممتُهُ وبالراح لما قابلَتْ أوجُهَ الشرْب

تذكرتُ بالتفاح منك سوالفاً وبالراح طعماً من مقبَّلِك العَذْبِ

لكن هذه الأشعار قلة نادرة لا نستطيع أن نعتمد عليها مع الاستطراد بذكر عفته فى شعره وتواتر الأخبار عنها ، وخير ما نختم به هذا الحديث هو تلك التحية والأمنية العزيزة التى يدعو إليها العباس :

لو أن القلوب تجازى القلوب لما كان يجفو حبيبٌ حبيبا

---

obeikandl.com

ابن الرّومي

ما زالت المطابع الغربية والشرقية تخرج الدراسات عن ابن الرومى ، ويفضله المستشرقون على معاصره البحترى لما امتاز به شعره من صدق الشعور والتعبير عن انفعالات الوجدان الصادقة . وقد اتفق الغربيون والشرقيون على وضعه على رأس شعراء الهجاء فى اللغة العربية ، ولقّبه بعض المستشرقين[1] بالشاعر الساخر .

ولقد ولد علىّ بن العباس بن جريج الرومى ببغداد فى الثانى من رجب سنة ٢٢١ هـ (٨٣٦ م) وتوفى عام ٢٨٣ هـ كما جاء فى بعض الروايات بنفس المدينة فأدرك فى حياته ثمانية من خلفاء العباسيين آخرهم المعتضد ، وعاش فى أزهى عصور الأدب والشعر والعلم من حياة تلك الدولة وأشدها صراعاً على الحكم .

عصر حفل بألوان الفتن والثورات وأنواع الدسائس والخيانات « فكان الخلفاء فيه عرضة للغضب والكيد من الجند والوزراء ونساء القصور ، أما الأمراء والوزراء فكانوا عرضة للغضب والكيد من جميع هؤلاء ويزيد عليهم الخلفاء كلما قدروا على البطش وأمنوا على أنفسهم دسائس المشاغبين والمنافسين[2] » .

وقد انطبعت أحداث هذا العصر فى شعر ابن الرومى ، وقدم لنا منها صوراً حية دقيقة الوصف كما فعل فى فتنة الزنج التى ثارت بالبصرة :

كم أغصّوا من شارب بشرابٍ ... كم أغصّوا من طاعم بطعامِ
كم ضنين بنفسه رام مَنْجًى ... فتلقّوا جبينه بالحسامِ
كم أبٍ قد رأى عزيز بنيه ... وهو يعلى بصارم صمصام
كم رضيع هناك قد فطموه ... بشبا السيف قبل حين الفطامِ

---

(١) Rhuvon Guest روفون جست فى حياة وأعمال ابن الرومى .
(٢) ابن الرومى للعقاد .

كم فتاة ناتم الله بكر فضحوها جهراً بغير اكتتام
صبّحوهم فكابد القوم منهم طول يوم كأنه ألف عام

وقد اشتهر القرن الثالث الهجرى بكثرة المذاهب والشيع فى الإسلام وطول الجدل حول الآراء المختلفة فى الدين ، وكثر الشك والإلحاد ، واتهم الناس فى دينهم مما حدا بابن الرومى إلى الدفاع عن نفسه إزاء مثل هذه الاتهامات وتوضيح ما يرد فى شعره من صور الخمر وتأويلها كقوله :

لا المدام الحرام لكن حلالٌ سُؤرنا يحثُّها طابخان
فهو لا خمر فى الحقيقة لكن هو خمر فى الظن والحسبان

ولا شك أن مثل هذه البيئة تشجع على ظهور مصطنعى التدين الذين يختفون وراء مظاهر الدين وهم يضمون بين جوانحهم قلوباً لا تحفظ إلاَّ ولا ذمة . وكان ابن الرومى يوجس من أمثالهم خيفة ، ولا يتورع عن تصويرهم فى شعره صوراً ساخرة فاضحة كقوله فى صاحب لحية طالت :

لحية أُهملت فسالت وفاضت فإليها تشير كفُّ المشيرِ
ما رأتها عين امرئ ما رآها قط إلا أهلَّ بالتكبيرِ
روعة تستخفه ثم يرعها من رأى وجه مُنكر ونكيرِ
فاتّق الله ذا الجلال وغيِّر منكراً فيك ممكن التغييرِ

ولقد انتشرت فى تلك البيئة الرشى وعوامل الفساد ، وكان على المرء كى يعيش فيها أن يتسلح بسلاح الخبث والدهاء ؛ وهو ما حرمه ابن الرومى فلم تسعفه عبقريته ؛ وقعدت به طبيعته البسيطة التى لا تعرف الخبث عن بلوغ الآمال حتى قال مستنكراً حاله :

أترانى دون الأولى بلغوا الآ مالَ من شرطة ومن كتاب ؟

وتجار مثل البهائم فازوا بالمنى فى النفوس والأحباب ؟
ويظلون فى المناعم واللذ ات بين الكواعب الأتراب
لهم المسمعات ما يطرب السا مع والطائفات بالأكواب
لهف نفسى على مناكير للنكْ رِ غضاب ذوى سيوف عِضاب
من كلاب نأى بها كل نأيٍ عن وفاء الكلاب غدر الذئاب
أصبحوا ذاهلين عن شجن النا س وإن كان حبلهم ذا اضطراب
فى حبير منمنم وعبير وصحان فسيحة ورحاب
فى ميادين يخترقن بسا تين تمس الرءوس بالأهداب

وفى القصيدة تصوير رائع للعصر وانصراف القلة المترفة إلى ملذاتها ولهوها ، على حين تئن الأغلبية المحرومة تحت وطأة الحاجة والفقر .

ويتحدث النقاد عن ابن الرومى وانفراده بطابع خاص بين شعراء عصره ، ويرجع بعضهم ذلك إلى مزاجه اليونانى ، لكن ابن الرومى لم يكن يونانياً خالصاً بل كانت أمه فارسية كما يقرر هو فى قوله مفاخراً :

وكيف أغضى على الدنيّة والفـ رس خؤولى والروم أعمامى

ثم كانت نشأته وثقافته عربية خالصة ، فاشتركت بذلك عوامل كثيرة فى تكوين شخصيته ، لكن مما لاشك فيه أن ابن الرومى كان له خيال واسع خصب ، ويملك صورة دقيقة بارعة استطاع أن يسجل بها أحداث عصره ، ويحفظ لنا صورة ناطقة نابضة بالحياة تصور مجالس اللهو والسمر وما يجرى فيها من شرب وطرب ورقص وقيان أبدع فى تصويرهن فى غير قصيدة ؛ كقوله يصفهن وقد ارتدين ملابس شفّت حتى حاكت الهواء أو لاشىء :

من جوار كأنهن جوار يتسلسلن من مياه عِـذابِ

لابسات من الشفوف لبوساً كالهواء الرقيق أو كالسراب
ومن الجوهر المضيء سناه شعلا يلتهبن أيّ التهـاب

وقد كثر تردُّد ابن الرومى على مجالس الموسيقى والغناء لشغفه بهما وحبه لها . وقد كان شديد الكَلَف بالمجيدين والمجيدات حتى أنه رثى بعضهن بأجود شعره .

ولا يستغرب من شاعر أن يحب الموسيقى وهو الإنسان الرقيق الحس والشعور ، السريع التأثر بما يقع تحت حسه من أحداث .

و إنك لتحس الألم العميق يفيض به قلبه لما أجبر على ترك منزل له فقال :

وحبب أوطان الرجال إليهم مآرب قضّاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهود الصبا فيها فحنّوا لذلكا
فقد أنفته النفس حتى كأنه لها جَسَدٌ إنْ بانَ غُودِرَ هالكا

وهو يعلل هذا الشعور المرهف الذى يتأذى كثيراً بأنه نتيجة طبيعية لما وهب من عقل وذكاء :

يا ليت أهل العقل إذ حُرموا عُصموا من الشهوات والفتنِ
لكنهم حرموا وما عصموا فقلوبهم مرضى من الإحن
وهم أحس على بليتهم من غيرهم بمرارة الغبن

ولقد وصف ابن الرومى الطبيعى فأجاد فى الوصف وأضفى على صورها من روحه حياة عارمة فخلع على مناظرها الحركة والحس ، وأنطقها بالنجوى والحديث الذى توسوس به إلى الشاعر العاشق للجمال .

انظر إلى هذا « التابلوه » الحافل واللوحة الكاملة للغروف فى روضة من رياض بغداد :

إذا رنقت شمس الأصيل ونفّضت على الأفق الغربى ورساً مذعذعا

ووودعت الدنيا لتقضى نحبها وشوّل باقى عمرها فتشعشعا
ولاحظت النوّار وهى مريضة وقدوضعت خدًّا إلى الأرض أضرعا
كما لاحظت عوّاده عين مدنف توجّع من أوصابه ما توجّعا
وظلّت عيون النور تخضل بالندى كما اغرورقت عين الشجىّ لتدمعا
يراعينها صورا إليها روانيا ويلحظن ألحاظاً من الشجو خسّعا
وبيّن إغضاء الفراق عليهما كأنهما خلّا صفاء تودّعا
وقد ضربت فى خضرة الروض صفرة من الشمس فاخضر اخضراراً مشعشعا
وأذكى نسيم الروض ريعان ظله وغنّى مغنى الطير فيه فسجّعا
وغرد ربعىٌّ الذباب خلاله كما حشحت النشوان صنجاً مشرّعاً

واشتهر ابن الرومى بعد ذلك بالتقلب السريع بين الرضى والغضب فهو لا ين ساعته[1] وطوع الخاطر من إحساسه ؛ والنوبة الطارئة هى المفتاح الذى يفض به كل ما استغلق من أسرار نفسه على الجملة » وهذا ما يوضح أسباب التناقض الذى نلقاه فى شعره ، فنحن تارة نسمعه يقول :

فالآن حين أجدّ الشيب يطلبنى أبادر الشيب باللذات عجلانا

لـكى يعود فيقول :

فدع شربها إذ أصبح الرأس مشرقاً مخاذرة أن يصبح القلب مظلما

وقد لقى ابن الرومى من حياته صروفاً شتى وتقلبات عنيفة ، فعاش طوراً فى دعة واطمئنان وخفض من العيش ، وقاسى بعد ذلك ألواناً من الحرمان وضيق ذات اليد . وديوان الشاعر سجل دقيق لـكل ما مرّ به من أحداث حياته التى تركت فى نفسه

---

(١) ابن الرومى للعقاد .

آثارها وندوبها العميقة لا سيما عند ما ضنّت عليه بأسباب الحياة الكريمة فى أواخر أيامه حين قال :

ثوبىَ الرث والثياب طراء وطعامى برغمى المجشوبُ
ومحلى عاريّة وجدارا ت بيوتى فكلها منكوبُ
وَمقيلى فى الصيف سخن بلا خيـ ـش فعظمى يكاد منه يذوبُ

وكأنى بالأيام قد آلت على نفسها متابعة ابن الرومى بالحادثات حتى تصهر عبقريته وتستخرج أجمل ما عنده من فن ؛ وقد كان الإبداع دائماً وليد الألم العبقرى .

فهو قد مات أبوه وتركه طفلا ، ثم ماتت أمه عند ما بلغ مبلغ الرجال ؛ وتتابع الموت على أسرته فغال أخاه ، ثم أولاده ، وزوجه جميعاً ؛ الواحد بعد الآخر .

وكان محمد أول من مات من أولاده بعد فقد أبيه ، وكان محمد هذا أثيراً عند أبيه ، فكاد الحزن يذهب بلبه . فقال يرثيه فى قصيدة طويلة من أروع شعره :

بكاؤكما يشفى وإن كان لا يُجدى فجودا فقد أودى نظيركما عندى
ألا قاتل الله المنايا ورَمْيَها من القوم حبّات القلوب على عمدِ
توخّى حمامُ الموتِ أوسطَ صِبْيَتى فلله كيف اختار واسطةَ العقدِ
على حين شِمْتُ الخير من لمحاته وآنست من أفعاله آية الرشد
طواه الردى عنى فأضحى مزاره بعيداً على قرب ، قريباً على بعد

وكاد من شدة حزنه أن يعترض على قضاء الله ويرفض مثوبة احتسابه ولو كانت جنة الخلد :

وما سرّنى أن بِعْتُهُ بثوابهِ ولو أنه التخليد فى جنة الخلدِ
ولا بعته طوعاً ولكن غصبته وليس على ظلم الحوادث من معد
وإنى وإن مُتِّعتُ يابنىَّ بعده لَذَاكره ما حنّت النِّيب فى نجد

بل إن ابنيه هذين سيكونان مبعثاً لتجدد الأحزان والذكريات :

أرى أخَوَيْك الباقيين كليهما ... يكونان للأحزان أوْرَى من الزندِ
إذا لعبا فى ملعب لك لذّعا ... فؤادى بمثل النار عن غير ما قصدِ
فما فيهما لى سلوةٌ بل حزازةٌ ... يُهيجانها دونى وأشقى بها وحدى

فإذا ما مات ابنه الأكبر هبة الله وقد ناهز الشباب كان رثاؤه نشيجاً وعويلا ونفساً تتفطر وتذهب حسرات من الأسى واللوعة التى لا يرجى معها عزاء بل الموت بعده أفضل .

يا حسرتا فارقتنى فتنفساً ... غضًّا ولم يثمر لى الفَنَنُ
أبُنَىّ إنك والعزاء معا ... بالأمس لُفّ عليكما كَفَنُ
تالله لا تنفكّ لى شجناً ... يمضى الزمان وأنت لى شَجَنُ
ما أصبحت دنياى لى وطناً ... بل حيث دارُك عندىَ الوطنُ

فإذا عُرف عن ابن الرومى بعد كل هاتيك الأحداث أنه كثير الطيرة ، شديد الإيمان بالتشاؤم ، و بتأويل الألفاظ فهلّا يلتمس له عذر ؟ وهو كان يعيش فى عصر فشا فيه التنجيم ، وآمن الناس جميعاً بالطوالع والنجوم . ومع ذلك فإن طيرة ابن الرومى لم تخلُ من صور مرحة ساخرة كقوله يهجو ابن طالب الكاتب :

أزيرق مشئومٌ ، أحيمر قاشرٌ ... لأصحابه ، بخسٌ على القوم ثاقبُ
وهل أشبه المرّيخ إلا وفعله ... لفعل نذير السوء شبهٌ مقاربُ
وهل يتمارى الناس فى شؤم كاتب ... لعينيه لون السيف والسيف قاضبُ

بل إن ابن الرومى متعلق بالحياة وملاذها رغم ما يلاقيه فيها من نصب وبلاء ، ورغم علمه أنها تسير به الموت ، وهو يعلم أن جمال الحياة فى شبابها ؛ لذا كثر تفجعه وتلفته إلى عهد الشباب الذى لا عزاء بعده إلا بالموت نفسه :

فمالى عزاء عن شبابى علمته سوى أننى من بعده لا أخلَّدُ
وأن مشيبى واعد بلحاقه وإنْ قال قوم إنه يتوعــدُ

وهو يأسى على ما فات مع الشباب من لهو النساء وإعجابهن الذى حل محله الإعراض والتعجب ، ويصور لنا كل هذه المشاعر فى صورة واقعية فكهة حيث يقول :

أأيام لهوى هل مواضيك عُوَّدُ ؟ وهل لشبابٍ ضل بالأمس مَنْشَدُ ؟
أقوم وقد شابت شواتى[1] وقوست قفاتى وأضحت كِدْنتى[2] تتخدّد
ولذّت أحاديثى الرجال وأعرضتْ سُلَيْمَى وريّا عن حديثى ومَهْدَدُ
ويُدِّلَ إعجاب الغوانى تعجُّباً فهن روانٍ يعتبرن وصُــدَّدُ

وقد كثرت الفكاهة اللطيفة والنكتة البارعة فى شعر ابن الرومى ، وكان مرجع ذلك إلى روح ساخرة تجيد السخر ، وتبالغ فى التصوير الساخر ؛ حتى إذا ما تعرض لذكر نفسه فإنه لا يرحمها من سخريته . . . استمع إليه يصف نفسه وهلعه من السفر بحراً :

فأما بلاء البحر عندى فإنه طوانى على روع من الروح واقبِ
ولو ثاب عقلى لم أدع ذكر بعضه ولكنه من هوله غير ثائب
ولمْ لا ؟ ولو أُلقيتُ فيه وصخرةً لوافيتُ منه القعر أولَ راسبِ
ولم أتعلم قط من ذى سباحة سوى الغوص ، والمضعوف غير مغالب
فأيسر إشفاقى من الماء أننى مرُّ به فى الكوز مر المجانب
وأخشى الردى منه على كل شارب فكيف بأمنيه على نفس راكب

---

(١) الشواة : جلدة الرأس .
(٢) الكدنة : الشحم واللحم .

ويصف أكل الموز فيقول :

يكادُ من موقعــه المحبوبِ يدفعه البلعُ إلى القــلوبِ

وهو يداعب صديقاً له وعده بأكلة سمك كل سبت ، ولكنه أخلف وعده فيسأله الشاعر :

ما لحِيتاننــا جَفَتْنَــا وأنّى أخلف الزائرون منتظريهم
قد أرحنا اعتلالهم وجعلنا سَبْتَهم جمعةً فما يشكيهم ؟
جاءنى السبت زورهم فأتينا من حفاظ عليــه ما يكفيهم
وجعلناه يوم عيــد عظيم فكأنا اليهود أو نحكيهم
واحتملنا مقالة الناس فينا ولهم كل ما احتملنا وفيهم

وتشيع السخرية بعد ذلك فى شعر ابن الرومى وقد أتت نتيجة طبيعية لهذا المزاج المضطرب والنفس المرسلة التى لا تقنع إلا بالمبالغة فى كل شىء . . . المبالغة فى اللهو وفى الأكل وفى الدرس وفى الشهوات . . . ثم لهذا العصر الذى يعيش فيه ، والذى جمع بين برديه المتناقضات كلها من علم وجدل وفقه وفلسفة وفساد فى السياسة وتكالب على اللهو وتصوف وزهد وظاهر يخالف الباطن . . . حتى وجه الشاعر نفسه يرى فيه التناقض فيسخر منه :

شغفت بالخرّد الحسان وما يصلح وجهى إلا لذى ورع
كى يعبد الله فى الفلاة ولا يشهد فيها مشاهد الجمع

وأنه ليصف الأشكال والحركات فيأتى لنا بصور كاريكاتيرية فى غاية الإبداع والإتقان . . . استمع إليه يصف الأحدب — ولا يرحم عاهته — فكأنه رجل يتضاءل ليتّقى صفعة على قفاه .

قصرت أخادعه وطال قَذَالهُ فكأنه متربص أن يُصْفَعا
وكأنما صُفِعت قَفَاه مرّة وأحسّ ثانية لها فتجمّعا

وهذه الصورة الـكاريكاتيرية لا شك فى أنها نوع من الهجاء الذى اشتهر به ابن الرومى وأقذع فيه حتى صار أشهر شعراء الهجاء فى عصره . . . لقد بلغ به الأمر أن هجا الناس جميعاً لأنهم لا يفهمون شعره بأفحش الهجاء فى قوله :

بحقهم إن باعدونى وقرّبوا سواى وتقريب المباعد أوجبُ
خفافيش أعشاها نهارٌ بضوئه ولازمها قطع من الليل ينهب
بهائم لا تصغى إلى شدو معبد وأما على جافى الغناء فتطرب

وأنه ليهجو أبا سليمان المغنى فيصفه بأنه عفريت الصغار ، ويقذع فى هجومه ؛ لـكن الصورة لا تخلو من فـكاهة مؤلمة :

يشـدو بصوت يسوء سامعه تبارك الله بارئ النَّسَمِ
أبَحُّ فيـه شـذوذ حشرجة منظومة فى مقاطع النغمِ
يفزّع الصبية الصغار به إذا بكى بعضهم ولم ينَمِ

لـكنه فى هذه الصورة للبخيل يبالغ فى السخرية حتى يصوره لنا يتنفس لقط شحه من منخر واحد وهى لا شك صورة رائعة مبتكرة :

يقتّر عيسى على نفسه وليس بباقٍ ولا خالد
فلو يستطيع لتقتـيره تنفّس من منخر واحـدِ

حتى القيم الدينية لم تنجُ من سخريته فهو يقول للتائب العائذ بالله :

لا تخلط الحب بالتقوى على المقاسى عذاب البحر والبينِ
ولم نبع قط دنيانا بآخرة ومثلنا لا يبيع النقدَ بالدَّيْنِ

ولنختتم هذا الحديث بالإشارة إلى مكانة المرأة فى حياة ابن الرومى . والراجح مما جاء فى شعره وظروف بيئته أنه لم يعرف — فيما خلا زوجاته — الفيان اللاتى كان يتردد الناس عليهن للهو والطرب ؛ لذلك فـكل ما جاء فى شعره عن المرأة

وصف واقعى لحقيقة مفاتنها رغم اللمحات التى تنم — فى بعض الأحيان — عن افتتانه بالجارية الموصوفة كقوله فى وحيد المغنية :

يا خليلى تيَّمتنى وحيـدُ ففؤادى بهـا معنًّى عميدُ
غادة زانها من الغصن قدٌّ ومن الظبى مقلتان وجيـد
وزهاها من فرعها ومن الخدَّيـ ـن ذاك السواد والتوريد
أوقد الحسن ناره فى وحيـد فوق خـدٍّ ما شابَهُ تخديدُ
فهى بردٌ بخدِّها وســـــلام وهى للعاشقين جهد جهيد
لم تَضِر قط وجهها وهو ماء وتذيب القلوب وهى قديد
ما لما تصطليه من وجنتيها غـير ترشاف ريقها تبريد
مثل ذاك الرضاب أطفأ ذاك الوجه لولا الإباء والتصريد[1]

---

(١) الشرب دون الرى .

oberkandl.com

وأبكِ عنى فطالما كنت من قبـ ـل أعير الدموع للعشاق

بهذا البيت من الشعر لخص الشاعر حياته أبلغ تلخيص ، تلك الحياة التى طال فيها بكاؤه حتى اضطر لأن يستعير دموع الناس . . فهى لم تجر هنيَّة إلا فى القليل وكانت فى أغلبها قاسية على ذلكم الشاعر الشاب الذى عاجلته المنية عام ٤٠٦ للهجرة وهو فى السابعة والأربعين من عمره أكمل ما يكون قوَّة وفتوَّة بعد حياة حافلة بشتى الأحداث والخطوب والأمجاد والكرب . فهو قد ولد ببغداد عام ٣٥٩ هـ لأبى أحمد الموسوى نقيب الأشراف — وهو اللقب الذى فاز به الرضىّ فيما بعد — شريفاً فى أسرة علوية كريمة عريقة فى النسب ، فكان يدل على الناس بهذا الأصل ، ويفخر بتلك الصلة على الناس حتى أنه قال يوماً معرِّضاً بحكومة الخليفة القادر بالله .

ما مقامى على الهوان وعندى مِقْوَلٌ صارم وأنفٌ حمىٌّ
وإباء محلّق بى عن الضـــيم كما راغ طائر وحشىّ
أى عذر له إلى المجد إن ذلَّ (م) غلام فى غمده المشرفىّ
ألبس الذل فى ديار الأعادى وبمصر الخليفـة العَـلَوِىّ
من أبوه أبى ، ومولاه مولا ىَ ، إذا ضامنى البعيد القصىّ
لفّ عرقى بعرقه سيّد النا س جميعاً محمدٌ وعلىّ
قد يذل العزيز ما لم يشمر لانطلاق وقد يُضام الأبىّ

وهو قد حرص على مكانة هذه الأسرة وهذا النسب الشريف فاجتهد فى تحصيل العلم حتى بلغ مكانه بين العلماء ، وألّف كتب (حقائق التأويل فى متشابه التنزيل) و (مجازات الآثار النبوية) و (تلخيص البيان من مجازات القرآن) ، وغيرها مما ضاع معظمه وفقدته المكتبة العربية .

وقد زاد من حرصه على تحصيل العلم تطلعه إلى الخلافة ورغبته فى الاتصال بأقطاب الزعماء فى الحواضر الإسلامية إلى جانب أمنيته فى أن يكون إمام الشعراء .

وقد كان له العذر كل العذر من العصر الذى نشأ فيه ، ففى القرن الرابع الهجرى شهدت اللغة العربية نهضة أدبية امتد أثرها إلى يومنا هذا ، كما ازدهى العصر ببحوث العلم وجدل الفلاسفة ، وأوغل الناس فى الحضارة ، وأجاد العلماء ، ولم يعد الناس يقنعون بالمواهب الفطرية كأسلافهم بل ذهبوا يصقلون مواهبهم بالدراسة والعلم ؛ حتى الخلفاء والملوك نبغ منهم الشعراء والعلماء .

وكان العراق خاصة روضة من أجمل رياض الشعر ، ومتنزهاً لفحول الشعراء أمثال السلامى وابن سكّرة وابن حجّاج ، كما كان مسرحاً للفتن والأحداث تثيرها أهواء السياسة ونوازع السلطان .

لقد عاصر الرضىّ تلك الثورة التى قامت بين الديلم والأتراك وعادت على العراق بأبشع ألوان الوحشية والخراب ... لقد أبيحت فى تلك الثورة مدينة الكرخ فدام فيها الحريق أكثر من أسبوع ، وأحرق الرجال والنساء فى الدور والحمامات .

لكن الحادثة التى أثرت فى نفس الرضى أبلغ الأثر هى سجن أبيه عام ٣٦٩ هـ ومصادرة أملاكه ، وكان شاعرنا لم يتجاوز العاشرة من عمره ، ففجرت شاعرية الغلام الذى تفتّحت عيناه على فواجع الحياة وأحداث الزمان .

وتقدم الشريف الرضىّ فى عالم الشعر سريعاً ، وأصبحت له شخصيته المميزة التى تستهويها المعانى المجردة عن الحوادث الدامية ، وتؤثر الحديث عن أزمات النفس والوجدان على الحديث عن أحداث النزال والطعان والمحسوس من اللذات والأفعال .

ولقد أحسّ شاعرنا بعبقريته الشعرية التى لم تظفر بحظها الواجب من التقدير من معاصريها ، فراح يؤكدها فى شعره فى مواضع كثيرة ، ويرى أن هذه العبقرية لها من القوة آمالا تقاس إلى جانبه قوة السلاح :

له قـلمٌ إن جرى غَرْبُهُ أَمِنَّا القَنَا وخشينا اليَرَاعا

وهى كفيلة بتحقيق المجد :

أَلَا من كنت شـاعرَهُ فإن المجـد شـاعرُهُ
وإن اللفـظ مطروحٌ على فـكرى جواهرُهُ

وهو فى البيت الأخير يعتز بقدرته اللغوية الفائقة على امتلاك ناصية اللغة .

ولم يكن الشريف يرضى بالشعر وعامته فحسب ، بل كان طموحه لا يقف عند حد وهو يغذى هذا الطموح بشعره ويذكر نفسه أبداً بأحلام المجد ويترنم بأمانيه ويرسم بشعره الطريق إلى تحقيق هذه الأمانى كان يقول :

اشـتر العزَّ بمـا بيـ ـع فمـا العـز بغـالِ
بالقصـار الصـفر إن شئـ ـت أو السـمر الطـوال
ليس بالمغبـون عقـلا من شرى عـزًّا بمـال
إنمـا يدَّخـر المـا ل لحاجات الرجال
والفتى من جعل الأمـ ـوال أثمـان المعـالى

ويقول :

ولى أمل كصدر الرُّمح ماضٍ سوى أن الليالى من خصومى
ويمنعنى المـدامَ طروقُ همى فمـا يحظى بهـا إلا نديمى
وما أوفت على العشرين سنى وقد أوفى على الدنيـا عزيمى[1]

وحديث الشريف عن المجد والفخر بنفسه وقدرته وجبروته حديث يطول وينبث فى أنحاء ديوانه وعلى مرِّ سنى حياته ، وفيه ذكرى تنفع الشـباب الطامحين كقوله :

---

(١) مذكر عزيمة .

سأمضى للتى لا عيبَ فيها وإن لم أستفد إلا عناء
وأطلب غاية إن طوّحت بى أصابت بى الحِمام أو العَلاء
أنا ابن السابقين إلى المعالى إذا الأمد البعيد ثنى البِطَاء
إذا ركبوا تضايقت الفيافى وعطّل بعضُ جمعهم الفضاء
نمانى من أباة الضيم نامٍ أفاض علىّ تلك الكبرياء
شأونا الناس أخلاقاً لِدَاناً وأيماناً رطاباً واعتلاء
ونحن النازلون بكل ثغرٍ نُريقُ على جوانبه الدماء
ونحن اللابسون لكل مجدٍ إذا شئنا ادّراعا وارتداء
أقمنا بالتجارب كل أمرٍ أبى إلا اعوجاجاً والتواء

لكن شاعرية الشريف لم تقف عند حدود الفخر والمعالى وأطماعه فى دنيا السياسة والجاه ، بل كانت شاعرية فياضة يرفدها خيال خصب واسع أنطق الصخر والرياح والأطلال ، وكان حديثه متصلاً مع الطبيعة والزمان وكلما اتصل بذكرى من ذكريات حياته العارمة . . . استمع إليه يصف تلك النجوم الغزلة والرياح التى تمر بالدار فتتلفت إلى ما فيها :

كَلِينى إلى ليل كأن نجومه تغازل طرفى عن عيون الجآذرِ
أمرُّ بدارٍ منك مشجوجة الثرى بمجرى نسيم الآنسات الغرائرِ
تمرُّ عليها الريح وهى كأنها تلفّتُ فى أعطاف تلك المقاصرِ

بل هو لا يرى فى العراق وبغداد سوى معانى الحب والهوى والأشواق والحنين إلى ذكرياته فى تلك الربوع الحبيبة إلى قلبه الذى يرى بغداد وهو فى أرض الحجاز :

أتطلب يا قلبى العراق من الحمى ؟ ليهنك من مرمى عليك بعيدُ

وأن حديث النفس بالشيء دونه رمال النقا من عالجٍ[1] لشديدُ
ترى اليوم فى بغداد أندية الهوى لها مبدئٌ من بعدنا ومُعيدُ
فمن واصف شوقاً ومن مُشتكٍ حشا رمَتْهُ المرامى أعينٌ وخدودُ
وأن التفات القلب من بعد طرفه طوال الليالى نحوكم لَيَزِيدُ
ولمَّا تدانى البين قال لىَ الهوى : رويداً ! وقال القلب : أين تريد ؟
أتطمع أن تسلى على البعد والنوى وأنت على قرب المزار عميدُ

وقد امتاز ديوان الرضى بميزة أخرى هى تلك الحكمة التى يرسلها على الناس فى غير تكلف ولا اصطناع ، والتى يفيض بها ديوانه فى مواضع عديدة . وإنى لأرجع هذه الظاهرة إلى أثر حادثة سجن أبيه ومصادرة أملاكه التى انتقلت به من العيش الرغيد إلى الفقر الشديد فى رعاية أمه التى أنفقت مالها فى رعاية أبنائها وتنشئتهم ولم تضن عليهم بشيء مما ملكت يداها .

لقد زلزلت تلك الحادثة حياة الرضىّ ، وتركته أمام الحياة وجهاً لوجه وهو يعد طفل ، فأخذت عيناه تتفتح على حقائق الدنيا وخلائق المجتمع والناس .

وهل أبلغ من الفقر مدرسة تنطق الحكمة وتكشف كل طلاء زائف عن وجه الحياة ، ولعل أول كشف أدركه الرضى هو ما سجّله فى قوله :

إذا قلّ مالى قلّ صَحْبِى ، وإنْ نَمَا فلى من جميع الناس أهلٌ ومرحبُ

ثم قوله :

يغرُّ الفتى ما طال من حبل عمره وترخى المنايا برهة ثم تجذبُ

واستمع إليه يعزّى النفس عن السجن بقوله :

كل حبس يهون عند الليالى بعد حبس الأرواح فى الأجسادِ

---

(١) اسم منطقة رملية .

وكيف تهدأ نفس الرضى وهو فى حرب مع الزمان أبداً ؟

يقولون نَمْ فى هدأة الدهر آمناً ... فقلت ومَنْ لى أن يهادِنَنى الدهرُ ؟
هل الحرب إلا ما تَرَوْنَ نقيصةً ... من العمر أو عدمٌ من المال أو عسرُ

بل إن نفسه ذاتها من أعدائه الذين يناصبونه العداء :

النفس أدْنَى عدوٍّ أنت حاذرهُ ... والقلب أعظمُ ما يبلى به الرجلُ

لـكن تمهَّلوا أيها الناس :

ولا تَزْرَعُوا شَوْكَ القَتَادِ فإنكم ... جديرون أن تدموا به وتُشاكوا

وفى الثامنة عشرة من عمره يطلع الرضى على الناس بقصيدة يشكو بها دهره ، وينثر فيها حكمة الشيوخ وخلاصة تجارب الحكماء ، نجتزئ منها بهذه الأبيات :

بلوت وجرَّبت الأخلاء مدة ... فأكثر شىء فى الصديق ملالُ
وما صحبك الأوفون إلا أباعدٌ ... إذا قلّ مالٌ أو نَبَتْ بك حالُ
ومن لى بخلٍّ أرتضيه ، وليت لى ... يميناً يعاطيها الوفاء شمالُ
تميل بى الدنيا لى كل شهوة ... وأين من النجم البعيد منال ؟
وتسلبنى أيدى النوائب ثروتى ... ولى من عفافى والتقنع لُ
أرى كل زاد ما خلا سدَّ جوعة ... تراباً وكل الماء عندىَ
ومثلى لا يأسى على ما يفوته ... إذا كان عقبى ما ينالُ
كأنا خُلقنا رضة لمنية ... فنحن إلى داعى المنون
وأنعم الحياة بهائم ... وأثبت منا فى التراب جبال

يقول الدكتور زكى مبارك فى وصف نكبة الرضى : « وزاد فى هول تلك المأساة أنها صادفت فتى رقيق الحس ، مرهف القلب ، شاعر الروح ، فصيَّرته ترّاً حنَّاناً يجيد تصوير الأسى وترجيع الأنين » .

وقد كان الرضى كذلك . وأول تفجعه كان من أجل أبيه السجين . . استمع إليه يصف حاله بغيبة أبيه :

لما ذكرتك عاد قلبي شوقه ... فبكين عنه مدامع الأقلام
خلّفتني زرعاً فطلت وإنما ... ذاك الغرار نمى[1] إلى الصمصام
أكدت[2] على الأرض من أطرافها ... وتدرّعت بمدارع الإظلام
وعهدتها خضراء كيف لقيتها ... أبصرت فيها مسرحاً لسوامي
أشكو وأكتم بعض ما أنا واجدُ ... فأعاف أن أشكو من الإعدام[3]

وقد انتقل هذا التفجع وتلك اللوعة إلى أشعاره فى الحب والغزل التى اشتهرت بصدق العاطفة واحتدام الوجد ، لكنها امتازت إلى جانب ذلك بميزة فريدة صبغت الكثير من غزله ؛ تلك هى الحرب العنيفة القائمة فى نفس الرضىّ بين العفة والانطلاق . . . بين ترك النفس على هواها وبين التصون والتحرز استعداداً المركز المأمول فى رياسة العلويين أو الوزارة أو الخلافة . . . بين قلبه وطبيعته البشرية وبين آماله وطموحه إلى مراكز تتطلب الحلم والوقار .

تأمل هذه الأبيات التى يفضح بها نفسه ويعترف بأنه يأتى الجمال متصنعاً التجهم فى حين يفيض قلبه وجداً ورقة .

ومقبِّل كفِّى وددت لو أنه ... أوما إلى شفتىّ بالتقبيلِ
جاذبته فضل العتاب وبيننا ... كبر الملول وذلة المملولِ
ولحظت عقد نطاقه فكأنما ... عقد الجمال بقُرْطُوٍ[4] محلول
جذلان ينفض من فروج قميصه ... أعطاف غصن البانة المطلول

---

(١) حد السيف .
(٢) غلظت .
(٣) الفقر .
(٤) ثوب رقيق .

من لى به والدار غير بعيدة من داره والمال غير قليل

لكنه عندما يثوب إلى نفسه يدافع عن وقاره بمثل قوله :

وأُكذب بالتصُّون مدَّعيهم وأُلجم قائليهم بالعفاف

لكن الحقيقة أن الرضى كان يدارى الناس وهو يحمل هوى عنيفًا بين أضلعه . . . أليس هو القائل :

أنا الفداء لظبي ما اعترضت له إلا وهتَّك شوقًا ما أُسَتِّرُهُ
لاحظته والنوى ترمى ملاحظه بعارض من رشاش الدمع يمطره
ما انفك من نَفَس للوجد يكتمه تحت الضلوع ومن دمع يوفره
أهوى إلىّ يداً عقد العناق بها والبين يعذله والحب يعذره
وقال : تذكر هذا بعد فرقتنا ؟ فقلت : ما كنت أنساه فأذكره

ولا يرى الرضى مندوحة من استعمال الرمز فى أشعاره ، فإذا قال : آل ليلى : فربما كانوا آل بثينة أو سواها ، وإذا قال : « أراك الحمى » ، فلعله يقصد أى مكان سواه كقوله :

يا أراكَ الحمى ترانى أراكا أىّ قلب جنى عليه جناكا
أعطش الله كل فرع بنعما ن من المـاطر الروى وسقاكا
أى نور لنـــاظرىّ إذا ما مرّ يوم وناظرى لا يراكا
لا يرى السوء من رآك مدى الد هر وحيّا الإله من حيّاكا
ورعى كل عاشق لك دلّته ه صبا طـلّة على ريّاكا

أو قوله :

عشقت ومالى يعلم الله حاجة سوى نظرى والعاشقون ضروبُ
ومالى يالميـاء بالشعر طائل سوى أن أشعارى عليك نسيبُ

أحبك حبًّا لو جزيت ببعضه أطاعك منى قائد وجنيبُ
وفى القلب داء فى يديك دواؤه ألا رب داء لا يراه طبيب

فهل حقا أن الرضى لم يكن يروم من معشوقته سوى النظر ؟ أم تراه كان — كما قال بعض نقاده — يعشق العشق ويحب الحب ويقول الشعر فى النساء كما قال ابن الفارض الشعر فى الخمر دون أن يتذوقها .

هل كان الرضى يعيش فى عالم خاص به من صنعه . . . عالم يبصر الناس فيه بالآذان :

فاتنى أن أرى الديار بطرفى فلعلّى أرى الديار بسَمْعى

ويتحدث فيه النفَس :

خذى حديثك عن نفسى من النَّفَسِ وجد المشوق المعنّى غير ملتبسِ
الماء فى ناظرى والنار فى كبدى إن شئت فاغترفى أو شئت فاقتبسِى

لا . . . إن الشريف الرضى قد لفحه الهوى وصهر قلبه بناره وأذاب نفسه حتى صارت هواء تحمله الريح لتلقى به من أحب :

خذى نفَسى ياريح من جانب الحِمى فلاقى به ليلاً نسيمَ رُبَى نَجْدِ
فإنَّ بذاك الحىّ إلفاً عهدته وبالرغم منى أن يطول به عهدى

بل استمع إلى هذا التصوير الواقعى الرائع لهذا اللقاء اللطيف الذى ينم عنه الطيب ، ويشى به البرق ، وتغار منه الطبيعة جميعا :

وأمست الريح كالغيرى تجاذبنا على الكثيب فضول الريط واللممِ
يشى بنا الطيب أحياناً ، وآونة يضيئنا البرق مجتازاً على إضم
وأكتم الصبح عنها وهى غافلة حتى تكلم عصفور على علم

ولعل من ألوان التفجع والأسى الأخرى الفريدة فى ديوان الرضى مرثياته

فى النساء على قلة احتفال العرب فى عهده برثاء النساء ، ولعل لأمه التى رعته فى نكبته ، وكانت تقيه النوائب ؛ الفضل الأول فى ظهور احتفال الرضى بالنساء وتقديره لهن حق قدرهن فكان رثاؤه لها من أبلغ مراثيه :

فبأى كف أستجنُّ وأتّقى ... صرف النوائب أم بأىّ دعاء
ومن الموّل لى إذا ضاقت يدى ... ومن المعلِّل لى من الأدواء
ومن الذى إن ساورتنى نكبةٌ ... كان الموقّى لى من الأسواء
لو كان يُبلغك الصفيح رسائلى ... لو كان يُسمعك الترابُ ندائى
لسمعت طول تأوُّهى وتفجُّعى ... وعلمت حسن رعايتى ووفائى
كان ارتكاضى فى حشاك مسببًا ... ركض الغليل عليك فى أحشائى

ولا يسعنا أن نختتم هذا الحديث دون أن نذكر حجازيات الشريف التى دان بها أدب العرب ، والتى قالها فى أماكن لا يحل فيها الرفث ولا الفسوق ، وقالها وهو نقيب الأشراف وإمام الحج ؛ لكنه نفّس بها عن نفثات صدر اضطربت فيه العواطف ، وجاش بها وبفورانها فما استطاع لها كتمانا ، فأرسلها ترانيم تحلّت بصفاء الروح وسمو العاطفة ، فغفر له معاصروه هتافه للجمال وإشادته بصبوات نفسه ولوعات هواه .

ولنصغ معاً إلى بعض هذا النشيد من الحجازيات الذى يوضح مناسك الحج فى شعر مرقص مطرب ، وكأنى به قد وضعه الرضى ليحدو به الحادى ركائبه فى ليالى الصحراء بين العراق والحجاز :

من مُعيدٌ لىَ أيا ... من بجزع السمراتِ[1]
وليـــــالىّ بجمع ... ومنًى والجمـــــراتِ

---

(١) اسم موضع .

وظباء حاليـــــات كظباء عاطـــــلاتِ
رائحـات فى جلابيـــب الدجا مختمرات
راميات بالعيون النجـــل قبـــل الحصبات
أيعقر القلب راحوا أم لعقر البـــدنات
كيف أودعت فؤادى أعينـــاً غير ثقات
أيها القانص ما أحسنـــت صيـــد الظبيات
فاتك السرب وما زوّ دت غير الحسرات
موقفـاً يجمع فتيـا ن الهوى والفتيات
نتشـاكى ما عنانا بكلام العـــــبرات
كم نأى بالنفر عنا من غزال ومهاة
آه من جيد إلى الدا ر كثير اللفتات
وغرام غـير ماضٍ بلقـــــاء غير آت

ولـكن أى مناسك الحج لا يحمل له الرضى ذكرى جميلة فى قلبه ؟ تأملوا معى هذه الأبيات ومنها تدركون المعانى التى تدور حولها الحجازيات . . إنها ذكريات تخلف دائماً لوعة فى قلبه لأنها غرس لحظات قصار يعقبها مدى الدهر رغم حساسية الرضى الشديدة للجمال وتدلهه المغرق فى عبادة الحسن الذى يجمع له موسم الحج ألوانه العجيبة من مختلف بقاع العالم :

ألا ياليالى الخيف هل يرجع الهوى إليـكن لى لاجازكنّ ندى القطر
فيا دين قلبى من ثلاث، على منى مضين ولم يبقين غير جوى الذكر
ورامين وهناً بالجمار وإنما رموا بين أحشاء المحبين بالجمر
رموا لا يبالون الحشا وتروّحوا خلِيين والرامى يصيب ولا يدرى

وقالوا غداً ميعادنا النفر عن منى وما سرنى أن اللقاء مع النفر
ويا بؤس للقرب الذى لا نذوقه سوى ساعة ثم البُعاد مدى الدهر

إن هذه الذكريات لا تفتأ تعاوده فى العراق ، بل إن سهامها تصيب قلبه من مكة :

يا ظبية البان ترعى فى خمائله ليهنك اليوم أن القلب مرعاكِ
الماء عندك مبذول لشاربه وليس يرويك إلا مدمع الباكى
هبّت لنا من رياح الغور رائحة بعد الرقاد عرفناها بريّاك
ثم انثنينا إذا ما هزنا طرب على الرحال تعلّلنا بذكراك
سهم أصاب ورامیه بذى سَلَمَ من بالعراق لقد أبعدت مرماكِ
أنت النعيم لقلبى والعذاب له فما أمرّك فى قلبى وأحلاك
عندى رسائل شوق لست أذكرها لولا الرقيب لقد بلّغتها فاكِ
هامت بك العين لم تتبع سواك هوى من علّم العين أن القلب يهواك
يا حبّذا نفحة مرّت بفيك لنا ونطفة غمست فيها ثناياك

أنا لا أريد أن أظلم الشريف ، لكن تأملوا هذه الأبيات المحيرة التى تحمل صوراً من الواقع والخيال . . . من المادة والروح إلى أيهما تنتمى :

وألمستنى وقد جدّ الوداع بنا كفًّا تشير بقضبان من العَنَمَ[1]
وألثمتنى ثغراً ما عدلت به أرْىَ الجنى[2] ببنات الوابل الرَّذِمِ[3]
ثم انثنينا وقد رابت ظواهرنا وفى بواطننا بُعدٌ من التهم

---

(١) شجرة حجازية ذات ثمار حمراء .
(٢) عصير الفواكه ممزوج بماء الغيث .
(٣) المتدفق .

وحبذا نهلة من فيك باردة يُعدى على حرّ قلبي بردها بفمي
عجبت من باخل عنى بريقته وقد بذلت له دون الأنام دمي

الحجازيات معجزة الشريف الرضى التى بلغ بها الذروة فى الشعر ، وقد ختمها بقصيدة يائية قالها وقد عجز عن اللحاق بالحجيج :

أقول لركب رائحين لعلكم تُحلّون من بعدى العقيق اليمانيا
خذوا نظرة منى فلاقوا بها الحمى ونجداً وكثبان اللوى والمطاليا
ومروا على أبيات حى برامة فقولوا لديغ يبتغى اليوم راقيا . .
فوا لهفتى كم لى على الحى شهقة تذوب عليها قطعة من فؤاديا
فيا جبل الريان إن تَعْرَ منهم فإنى سأكسوك الدموع الجواريا

أعيروا الرضى دموعكم ليكسو بها جبال الذكريات فلطالما أعار العاشقين دموعه .

المتنبي

وإنِّي لمن قَوْمٍ كأنَّ نفوسهم بها أنَفٌ أنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ والعَظْمَا
فلا عَبَرَتْ بِي ساعةٌ لا تُعِزُّنِي ولا صَحِبَتْنِي مهجةٌ تَقْبَلُ الظُّلْمَا

ومَنْ غير المتنبي يحمل بين جنبيه كل هذه الكبرياء والغرور ، ومن غيره يفيض شعره بمثل هذه الشراسة والقوة والتحدى . . . التحدى للناس ، والتحدى للظروف التى نشأ فيها ، والتحدى للبيئة التى ولد فيها .

وأية بيئة كانت تلك ؟ لقد ولد أبو الطيب أحمد بن الحسين بالكوفة سنة ٣٠٣ هـ فى محلة تسمى كندة ينسب إليها ، والعراق يومئذ يمور بالفتن والدسائس والظلم الاجتماعى والانحلال الخلقى ؛ فالدماء مستباحة ، والحرمات منتهكة ، والرشى متفشية ، والثورات تتوالى ؛ فالثورة البابلية فى أول القرن الثالث ، وثورة الزنج فى أواسط ذلك القرن ، وثورة القرامطة فى آخره وأثناء القرن الرابع ورقعة الإمبراطورية الإسلامية يتنازعها الولاة والمغامرون الطامعون ، وكل شىء حوله لا يقر له قرار ، على حين بلغت الحياة الثقافية أرقى مدى ، وأخذت الثقافة الإسلامية والعلم العربى والفن الشرقى تؤتى أشهى ثمارها وأروع إنتاجها . وقد فشا العلم بين الناس بمختلف طبقاتهم ، فسمت كل طبقة بنظرها ترجو أن تظفر بما يحسن أحوالها ، وكثر ظهور المغامرين الطامحين إلى المجد والعلى .

وسط هذه البيئة ولد أبو الطيب لأبوين فقيرين ، وقيل إن أباه كان سقاء ؛ لكن أبا الطيب اختلف إلى المدرسة ، واتجه إلى العلم ، وطمحت أبصاره منذ الصبا الباكر إلى المجد . وكان شعوره عميقاً بهوان منبته ، فتجاهل هذا الأصل فى ديوانه تجاهلا تامًّا ، وحاول أن يفرض على الزمن شخصيته ، وأن يقنع العالم بجدارته لأن تشرف به الأقوام لا أن يشرف هو بالانتساب إلى أحد :

لا بقومى شرُفت بل شَرُفوا بى و بنفسى فخرتُ لا بجدودى

وهو لم يذكر أحداً من أهله فى ديوانه سوى جدته لأمه التى حنت عليه وغذته بعطفها . ومع ذلك فهى لا تعلو إلا بأنها جدته . . . فقد قال فى رثائها :

ولو لم تكونى بنت أكرم والد لكان أباك الضخم كونك لى أُمّا

وفى سبيل العلم ذهب إلى البادية وهاجر إلى العلماء «وطلب الأدب وعلم العربية» ونظر فى أيام الناس ، وتعاطى قول الشعر من حداثته حتى بلغ الغاية التى فاق فيها أهل عصره وطاول شعراء وقته » .

وفى سبيل المجد والثروة تنقل فى البلدان ما بين حواضر الشام ومصر والعراق حتى لقى مصرعه وهو فى طريقه إلى سيف الدولة مرة ثانية من العراق على أيدى قطاع الطرق عام ٣٥٤ هجرية على أرجح الأقوال .

وقد قيل فى تعليل اسمه « المتنبى » إنه ادّعى فى شبابه الباكر النبوّة . واستدل القائلون بذلك بأبيات من شعره كقوله :

أنا فى أمّـة تداركها اللـــهُ غريبٌ كصالح فى ثمودِ

قوله :

ما مُقامى بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهودِ

ولا يستبعد على من كان فى مثل طموح المتنبى أن يدّعى شيئاً من هذا ليلتف الناس حوله كما روى عنه بعض المؤرخين زاعمين أن هذا كان سبب حبسه وتقييده .

ولعل مما يؤيد دعوى النبوة ما كان يصطنعه المتنبى فى شعره من الفلسفة ومعانيها ، وما يحاوله دائماً من فلسفة الحياة والناس كقوله :

نبكى على الدنيا وما من مَعْشَرٍ جمعتهمُ الدنيا فلم يتفرّقوا
أين الأكاسرة الجبابرة الأولى كنزوا الكنوزَ فما بَقِينَ ولا بَقُوا

من كل من ضاق الفضاء بجيشه حتى نوى فحواه لحد ضيّقُ
خُرْسٌ إذا نُودوا كأن لم يعلموا أن الكلام لهم حلال مطلقُ
فالموت آتٍ والنفوس نفائسٌ والمستعز بما لديه الأحمقُ

وهو يناقش آراء الدهريين القائلين بفناء الأرواح والمؤمنين بالبعث ، ويخلص إلى أن التفكير فى الدنيا والخوف على فراقها تعب ، كما أن اليقين بهذا الفراق تعب آخر ؛ فالنفس بين حالين من التعب والعجز :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم إلا على شجَب والخلف فى الشجَبِ[1]
فقيل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تَشْرَكُ جسم المرء فى العَطَبِ
ومن تفكّر فى الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين العجز والتعب

ويتحدث عن الدنيا وانتقالها بين الورثة وزوالها الحتم عن صاحبها مهما طالت صحبته لها فى قوله :

تملكها الآتى تملُّكَ سالبٍ وفارقها الماضى فراق سليبِ
ولا فضل فيها للشجاعة والندى وصبر الفتى لولا لقاء شَعوب[2]
وأوفى حياة الغابرين لصاحب حياة امرئٍ خانته بين مشيب

وقد امتاز كثير من شعر المتنبى بالمبالغة أيضاً حتى يمكن القول بلا حرج أن المبالغة من خصائص المتنبى فى الشعر ، وحتى خرج بها أحياناً من حدود المعقول إلى السخف والإسفاف كقوله فى مدح ابن زريق :

بَشَرٌ تصوّر غاية فى آية تنفى الظنون وتفسد التقييسا
وبه يُضَنُّ على البرية لا بها وعليه فيها لا عليها يُؤسَى
لو كان ذو القرنين أعملَ رأيه لما أتى الظلمات صرن شموسا

---

(١) الهلاك .
(٢) شعوب : علم للمنية .

أو كان لُجُّ البحرِ مثلَ يمينه ما انشق حتى جاز فيـــه موسى
أو كان للنيران ضوء جبينه عُبِدَتْ فـكان العاملون مَجُوسا

أما التعقيد فهو شائع فى شعر المتنبى بمـا لا يقل عن المبالغة ، ولعل ذلك مرجعه إلى ما كان يجهد به نفسه فى اصطناع المعانى واختيار الألفاظ حتى ليبدو فى بعض شعره صانعاً لا شاعراً يضع الـكلمات فى قوالب صناعية بدلا من أن يعبر عن خلجات نفسه ونبضات قلبه فى شعر مرسل على سجيته ووفق طبيعته .

ولعل هذا العناء الذى كان يحتمله أبو الطيب يرجع إلى حرصه على مجانبة الخطأ وعدم تمكين حاسديه — وهم كثيرون — من نقده أو السمو إلى صنعته و إلى طبقة ممدوحيه ، وكان بعضهم من كبار الشعراء كسيف الدولة وابن العميد :

فاستمع إليه يتحدث عن ناقته التى تمضى الليل تسير فى الصحراء و يسير الهزال فى جسدها هاوية و يأكل شحمها :

فتبينت تُسْئِدُ مُسْئِداً فى نيِّها[1] إسآدها[2] فى المهمه الإنضاء[3]

لسنا فى حاجة بعد ما قدمنا من أمثلة من شعر المتنبى إلى دليل جديد على عمق شعوره بتفوقه وامتيازه ذلك الشعور الذى ما فتئ يكرره فى شعره ، وكأنى به يستكثر الأعداء لا سيما من الشعراء والأدباء ؛ وكيف لا وهو يقول :

أنا السابق الهادى إلى ما أقوله إذ القول قبل القائلين مَقُولُ

بل حتى فى المديح لاينسى نفسه ، وكثيراً ما يشاطر الممدوح القصيدة إن لم يزد عليه فهو حين يمدح كافوراً يقول له :

وفؤادى من الملوك وإنْ كا ن لسانى يُرَى من الشعراء

---

(١) الشحم .
(٢) إدمان سير الليل .
(٣) مصدر أنضى : أى هزله .

وقد كان نتيجة لهذا الشعور شديد الكبرياء حتى أنه لما فوتح فيمن ذمه من شعراء بغداد أجاب بقوله : إنى فرغت من إجابتهم بقولى لمن هم أرفع طبقة منهم فى الشعراء :

أرى المتشاعرين غرُوا بذمِّى ومن ذا يحمد الداء العضالا
ومن يك ذا فم مُرٍّ مريضٍ يجدْ مُرًّا به الماء الزلالا

وهل أبلغ فى التعبير عن كبريائه من قوله :

لتعلم مصر ومن بالعراق ومن بالعواصم أنى الفتى
وأنى وَفَيْتُ وأنى أبَيْتُ وأنى عَتَوْتُ على من عتا
وما كل من قال قولا وفَى ولا كل من سِيم خسفاً أبَى

بل إن هذه الكبرياء كثيراً ما قادته إلى الغرور الذى أوغر عليه قلوب الناس كقوله فى حضرة سيف الدولة :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا بأننى خير من تسعى به قَدَمُ
أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعتْ كلماتى من به صممُ
الخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلمُ

ومع كل هذا فقد كان المتنبى شاعراً ينفعل بما يقع عليه وجدانه وحسه ويجيد وصفه فى شعر تخالطه الرقة رغم ما يعلو صورته من تهاويل القوة . . . . استمع إليه يصف بحيرة :

لولاك لم أترك البحيرة والغور دَفِىء وماؤها شَبِمُ
والموج مثل الفحول مزبدة تهدر فيها وما بها قَطَمُ
والطير فوق الحباب تحسبها فرسانَ بُلْقٍ تخونها اللُّجُمُ
كأنها والرياح تضربها جيشاَ وغَى : هازمٌ ومنهزمُ

كأنها فى نهارها قَمَرٌ حفّ به من جنانها ظُلَمُ
تغنت الطير فى جوانبها وجادت الأرضَ حولها الديمُ

وأنه ليعقد مقارنة لطيفة بين نساء الحضر ونساء البدو ؛ فيها الكثير من سذاجة التعبير و بدائيته ، حتى أنه ليشبه نساء الحضر بالمعيز ونساء البدو بالآرام[1] :

ما أوجهُ الحضر المستحسنات به كأوجه البدويات الرعابيبِ
حُسن الحضارة مجلوب بتَطْرِيَةٍ وفى البداوة حسنٌ غير مجلوبِ
أين المعيزُ من الآرام ناظرة وغير ناظرة فى الحسن والطيبِ
أفدى ظباءَ فلاةٍ ما عرفن بها مضغَ الكلام ولا صبغَ الحواجيبِ
ولا برزن من الحمّام ماثلة أوراكهن صقيلات العراقيبِ
ومن هوى كل من ليست مموّهةً تركتُ لون مشيبى غير مَخْضُوبِ

لكن المتنبى دائم الخوف من الاتهام بالضعف ، ولذلك تراه يصبغ معظم شعره بالعنف ، وهو دائم الحديث عن القوة والقتال منذ صباه الباكر . فاستمع إليه فى رثائه لمحمد بن إسحاق التنوخى ، فهو يحدثنا عن شجاعة الميت وحسن بلائه فى الحرب وسيوفه التى تشرق من أغمادها ثم تغرب فى رؤوس أعدائه :

يزور الأعادى فى سماء عجاجه أسنّته فى جانبيها الكواكبُ
فتسفر عنه والسيوف كأنما مضاربها مما انفللن ضرائبُ
طلعن شموساً والغمود مشارقٌ لهنّ وهامات الرجال مغاربُ

وهو يكثر من الحروب ووصف المعارك حتى جواده كان له نصيب كبير من شعره فهو يصفه ساعة القتال بقوله :

---

(١) الظباء الخالصة البياض .

وتسعدنى فى غمرة بعد غمرة[١] سَبوح[٢] لها منها عليها شواهدُ
تثنّى على قدر الطعان كأنما مفاصلها تحت الرماح مَراوِدُ[٣]
محرمة أكفال خيلى على القنا محللة لبّاتها والقلائد

إلا أن قصائد المديح تكوّن الجزء الأكبر من ديوان المتنبى وهو كان يلجأ إليه تحت ضغط الحاجة أحياناً ولتحقيق آماله العراض فى أكثر الأحيان .

لقد كان رجلا واسع الأمل يريد أن يكون والياً أو أميراً ، وهو يلتمس الطريق إلى ذلك بالتنقل بين المقاطعات ومدح الحاكمين ، فهو يقول لكافور الإخشيدى :

إذا كسب الناس المعالىَ بالنَّدَى فإنك تعطى فى نداك المعالِيَا
وغير كثير أن يزورك راجلٌ فيرجع ملكا للعراقين واليا

وقبل أن يتصل بكافور أقام فى رعاية سيف الدولة على بن حمدان زمناً طويلا ، فأعانه على تحقيق بعض آماله ، وأعاشه فى خفض من العيش ونعمة .

وفى حماه كتب المتنبى أروع شعره وأجمل مدائحه مثل قوله :

إن كان قد ملك القلوب فإنه ملك الزمانَ بأرضه وسمائهِ
الشمس من حسّاده ، والنصر من قرنائه ، والسيف من أسمائه
أين الثلاثة من ثلاث خلاله من حسنه ، وإبائه ، ومضائهِ
مضت الدهور وما أتين بمثله ولقد أتى فعجزن عن نُظرائهِ

ولقد رأينا كيف أن المتنبى يعشق القوة ويمجدها . ومن كان مثله فهو ولا شك ينفعل بما يراه من آثار هذه القوة فيترجم عن شعوره أجمل الترجمة ، لذلك نرى المتنبى يجيد وصف المعارك وقد خاض بعضها مع سيف الدولة فسجلها وخلدها بشعره ، وهو يمدحه ويصف جيشه فى قوله :

---

(١) الشدة .
(٢) الفرس كأنها تسبح فى جريها .
(٣) جمع مرود وهو حديدة تدور فى اللجام .

وما الفرق ما بين الأنام و بينه إذا حذر المحذور واستصعب الصعبا
لأمر أعدّته الخلافة للعدا وسمّته دون العالم الصارمَ العضبا
ولم تفترق عنه الأسنة رحمةً ولم يترك الشامَ الأعادى له حُبّا
ولـكن نفاها عنه غيرَ كريمةٍ كريمُ النثا ما سُبَّ قط ولا سَبَّا
وجيش يثنّى كل طودٍ كأنه حريق[1] رياح واجهت غُصُناً رَطْباَ
كأن نجوم الليل خافت مُغَارَه فمدّت عليها من عجاجته حُجبا

لذلك لم تـكن ندرة شعر الغزل فى ديوانه بالأمر المستغرب وهو إذا تعرض للنسيب تـكلف القول وأسمعنا صنعة ميتة لا حياة بها ولا عاطفة كقوله :

القلب أعلم يا عذول بدائهِ وأحقُّ منك بجفنه و بمائهِ
فَوَمَنْ أحبَّ لأعصينَّك فى الهوى قَسَماً به و بحسنه و بهائه
أأحبه وأحب فيه ملامة ؟ إن الملامة فيه من أعدائه

ولا يشذ عن هـذه القاعدة إلا النادر من شعر الشباب الباكر كقوله فى إحدى مدائحه :

أمن ازديارك فى الدجى الرقباء إذ حيث أنت من الظلام ضياء
قلق المليحة وهى مسك هتكها ومسيرها فى الليل وهى ذُكاء
أسفى على أسفى الذى دلّهتنى عن علمه فيه علىّ خَفَاء
وشكيّتى فقدُ السقام لأنه قد كان لمّـا كان لى أعضاء
مثلتِ عينك فى حشاى جراحة فتشابها كلتاهما نجـــــلاء

والشاعر نفسه يعترف بأنه ليس من أهل الغزل والعشق . وأن الخيل المجدّة السريعة السير خير من كل امرأة فى مشيتها استرخاء وتثاقل :

---

(١) الريح الشديدة .

أَلَا كل ماشية الخَيْزَلَى فدا كل ماشية الهَيْدَبَى

ويقول مستنكراً حال العاشقين :

وللخَوْدِ منى ساعة ثم بيننا فلاة إلى غير اللقاء تُجابُ
وما العشق إلا غِرَّةٌ وطماعةٌ يعرِّض قلبٌ نفسه فيُصابُ
وغير فؤادى للغوانى رَمِيَّةٌ وغير بنانى للزجاج[1] رِكَابُ

بل هو يشبه نفسه بالصخرة فى قصيدة أخرى رغم ما فى القصيدة من شعور صادق بالألم والمرارة التى تحزُّ فى نفسه لما لقيه من فشل فى أسفاره :

عيد بأية حالٍ عُدْتَ يا عيدُ بما مضى أم لأمرٍ فيك تجديدُ
أما الأحبّة فالبيداء دونهم فليت دونك بيداً دونها بيدُ
لم يترك الدهر من قلبى ولا كبدى شيئاً تتيمه عينٌ ولا جِيدُ
يا ساقيىَّ أخمر فى كؤوسكما أم فى كؤوسكما همٌّ وتسهيدُ ؟
أصخرةٌ أنا مالى لا تحركنى هذى المدام ولا هذى الأغاريدُ
ماذا لقيتُ من الدنيا ؟ وأعجبها إنى بما أنا باكٍ منه محْسُودُ

والمتنبى بعد ذلك يجيد السخرية ، وهو يسخر دائماً من الضعف والضعفاء . ومن أروع ما طالعت له تلك الصورة الساخرة الممعنة فى الاستهجان لاثنين اشتركا فى قتل فأر ... فأر واحد يشترك رجلان فى قتله بدلا من أن يقاتلا فى سبيل حريتهما أو رفع المظالم عن قومهما . . . لقد استكانا للذل حتى ظنّا أن أرفع معانى البطولة تتمثل فى قتل فأر . فاستمع لرأى المتنبى فيهما :

لقد أصبح الجُرَذُ المستغيرُ أسير المنايا صريع العَطَبْ
رماه الكنانى والعامرى وتلّاه للوجهِ فعلَ العَرَبْ

---

(١) كأس الخمر .

كِلاَ الرجلين أتَّلَى قتله فأيكما غلّ حُرَّ السَّلَبُ ؟
وأيكما كان من خلفه ؟ فإن به عضةً فى الذنَبْ

ولم يكن المتنبى بأقل إقذاعاً فى أشعار الهجاء من هذا بل أنه ليسف أحياناً وينزل إلى أحط أنواع السباب . وقد قال يوماً يهجو وردان بن ربيعة الطائى :

لحا الله وردانا[1] وأمًّا أتت به له كسب خنزيرٍ وخُرطومِ ثعلبِ
فما كان فيه الغدر إلا دلالة على أنه فيه من الأمّ والأب

ولقد أفرغ كل المرارة المختزنة فى نفسه فى قصيدته المشهورة التى هجا فيها كافوراً غداة فراره من مصر وملأها بالصور العجيبة الشوهاء لصاحب الأمس ، وقد جاء فى آخرها تلك الصورة الفريدة للعبد فى يد النخّاس وهو يعرضه للبيع :

من علَّم الأسود المخصىّ مكرمةً ؟ أقومهُ البيض أم آباؤه الصِّيدُ
أم أذنه فى يد النخّاس دامية أم قدره وهو بالفلسين مَرْدُودُ ؟
أوْلى اللئام كُوَيْفِير بمعذرة فى كل لوم وبعض العذر تفنيدُ

* * *

غفر الله للمتنبى ما أفرط فى كبريائه وادعائه القوة والعظمة وإسرافه على نفسه والناس فى مطالبه التى نغّصت عليه حياته ولم تدع له فى الدنيا من قرار .

---

(١) بنات وردان وهى دويبة كريهة الريح

ابن زيدون

منذ ربع قرن من الزمان نشر الأستاذ كامل كيلانى على الناس ديوان ابن زيدون بعد ضبطه وشرحه ، فكان لظهور الديوان دوى عظيم فى المحافل الأدبية وفضل إجلاء بعض كنوز بحترى المغرب الدفينة ونشرها على أدباء العصر لينهلوا من صفو مواردها .

وقد استقبل الديوان خير استقبال من كل مهتم بأدب العرب . ومما قاله أمير الشعر أحمد شوقى فى تحية الديوان :

يا ابن زيدون مرحبـــا قد أطلت التغيُّبـــا
أنت فى القول كلّه أجمل الناس مذهبا

ولم يبالغ فيما قاله شوقى عن أبى الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون ذى الوزارتين ، ذلك الرجل الذى خلد اسمه وسيبقى ما بقى تاريخ الأندلس وأمجاد العرب فى الأندلس .

لقد ولد ابن زيدون فى قرطبة عام ٣٩٤ هـ فى أول عهد المظفر بن ... فى بيت علم وأدب و بيئة تعشق الفن والجمال وفترة هى أزهى عصور الأدب فى الأندلس ، وكان أبوه القاضى العالم أبو بكر عبد الله بن أحمد الذى مات عام ٤٠٥ هـ وخلف لابنه اليتيم صغيراً ، لكن لعلها الحياة كانت تعد ابن زيدون لدوره الطويل فيها لأنه ما إن بلغ مراتب الشباب حتى اشتهر وذاع صيته وتسامع الناس بعلمه وأدبه ، وأحلّوه منهم محل الزعامة ؛ مما هيأ له أسباب الاشتراك فى الفتنة القرطبية التى اندلعت نيرانها فى قرطبة فزلزلت دولة بنى أمية ودولة بنى حمود والعلويين ، وأسلمت الحكم إلى ملوك الطوائف الذين تنازعوا السيادة ، وتقاتلوا على الدنيا حتى هوت بهم جميعاً .

وكانت سنه حينئذ ٢٨ عاماً فقرّبه ابن جهور ولقّبه بذى الوزارتين ؛ لكن عين الحقد لاتنام وحساد العبقرية كثيرون ، فظلوا يكيدون له حتى سجنه ابن جهور بتهمة التآمر على الحكم ، فأخذ يستعطفه بالبديع من القصائد والرسائل عامين دون جدوى ؛ فعمد إلى الفرار .

فلما مات أبو الحزم عاد ابن زيدون إلى قرطبة فى خلافة ابنه ، لكن حساده لم يتركوه ينعم بمكانته الجديدة ، بل عملوا على النيل منه حتى غيروا قلب الابن كما غيروا قلب الوالد من قبل ، ففر ابن زيدون مخافة السجن ، وظل يتقلب فى البلاد حتى استقرت به النوى فى إشبيلية حيث استوزره المعتضد ثم خليفته من بعده المعتمد السياسى الحصيف الذى لم يسمع لحساد ابن زيدون بل اقتنع برأيه فى غزو قرطبة والاستيلاء عليها ، فعاد إليها ابن زيدون مكرّماً معززاً .

لكن كيف يهدأ الحسد والغيرة فى قلوب الناس ! ؟ لقد ظلوا يكيدون له حتى أنهم زينوا للمعتمد أن أحداً لن يخمد ثورة يهود إشبيلية إلا ابن زيدون فأمره بالخروج إليهم رغم شيخوخته ومرضه ، فمات ببعض الطريق فى ١٥ رجب سنة ٤٦٣ هـ .

عاش ابن زيدون فى عصر قلق مضطرب تتخلله الثورات التى تطيح بالعروش والأسر ، وفى بيئة أخذت من أسباب الترف والرفاهية إلى أبعد حد أتاحه العصر ، ونعمت بالحرية فى الفكر والعيش إلى أبعد مدى ؛ حتى أن الوزير ليدعو الخليفة عَلَناً إلى اغتنام صفو الحياة ومجلس اللهو والشراب ، ولا يتحرج الأمراء من مباذلهم . وإنى لأذكر لابن زيدون الأبيات التالية التى تدلك على مدى حرصهم على لهوهم :

أدِرْهَا فقد حسن المجلسُ وقد آن أن تترع الأكؤسُ
ولا بأس إن كان ولّى الربيع إذا لم تجد فقده الأنفس

فإن خـــــــلال أبى عامر بهـــا يحضر الورد والنرجس

إن فى هذا المجلس الحافل غناء عن جمال الطبيعة ورداء الربيع .

لـكن الحياة لم تجرِ سهلة هيّنة لابن زيدون ، بل كانت دائماً له بالمرصاد ؛ وتلك سنّة الطبيعة مع العباقرة ، فذهبت به إلى السجن أولاً ؛ وفى ظلمات السجن ، ومن خلال قسوة الوحدة والعذاب ؛ تفجرت عبقرية ابن زيدون ، وأبدعت أجمل قصائده ورسائله . فلما استطاع الفرار أصاب أهله من ابن جهور الأذى والضرر مما كان يشعره بالألم و يملأ قلبه بالـكمد حتى قال نادماً على ما أخلص فى خدمته :

قل للوزير وقد قطعت بمدحه زمناً فـكان السجن منه ثوابى

لا تخشَ فى حقى بما أمضيته من ذاك فىّ ولا توقّ عتابى

لم تخطِ فى أمرى الصواب موفقاً هذا جزاء الشاعر الـكذابِ

أما الحادث الثانى الذى زلزل حياة ابن زيدون وأنطقه بأجود الشعر الذى سلـكه فى مصاف أئمة شعراء الغزل وأفسد عليه حياته جميعاً ، فقد كان حبه لولّادة بنت المستـكفى بالله ؛ تلك الغانية الجميلة ، سليلة البيت العريق ، صاحبة العلم والأدب والفـكاهة . . . ذلك الحب الذى نافسه فيه كثيرون ، وخلق له من الشانئين الجمّ الـكثير ؛ لـكنها لم تحفظ عهده بعد السجن ، بل شغلت عنه بابن عبدوس فقال فيها :

أكرم بولادة ذخرًا لمدخرِ لو فرّقت بين بيطارٍ وعطّارِ

قالوا : أبو عامر أضحى يلمُّ بهـا قلت : الفراشة قد تدنو من النار

عيّرتمونا بأن قـد صار يخلفنا فيمن نحبُّ ، وما فى ذاك من عار

أكلُّ شهىٍّ أصبنا من أطايبه بعضاً و بعضاً صفحنا عنه للفار

لـكن ما حدث فعلا أن ابن زيدون لم يترك ما ترك للفأر عن زهد ، لـكن عن عجز ؛ بل إنه لم يستطع أن يتحرر من ذكرى ولّادة مدى حياته ، وأبى له وهى معقد آماله جميعاً :

أمّا مُنى نفسى فأنت جميعها يا ليتنى أصبحت بعض مُناكِ
يدنو بوصلك حين شطَّ مزاره وهمٌ أكاد به أقبّل فاكِ

بل إنه ليرجو منها عطفة تحيا بها نفسه ، ولا يطمع منها فى أكثر من زورة :

ألا عطفة تحيا بهـا نفسُ عاشقٍ جعلتِ الردى منه بمرأى ومسمع
صِلِينى – بعضَ الوصل – حتى تبيّنى حقيقة حالى . . ثم ما شئت فاصنعى

ولعل قصيدته . . « أضحى التنائى » من أروع ما قرأت فى حياتى ترجمة عن معانى التفجع والألم لبعد الحبيب ؛ ومن منا لا يذكر تلك الأبيات الباكية التى بتمنى فيها الموت و يفضله على فراق ولّادة فى مطلع القصيدة:

أضحى التنائى بديلا من تدانينا ونابَ عن طيب لُقيانا تجافينا
ألا [1] وقد حان صبحُ البين صبّحنا حينٌ فقام بنا للحين ناعينا
مَنْ مُبلغ المبلسينا بانتزاحهم حزناً مع الدهر لا يبلى و يبلينا

و يمضى ابن زيدون فى وصف يأسه والعوامل التى أفضت إلى تمنّيه هذا الموت المعجّل فيحس الدنيا خواء حوله لا يرى فيه إلا ظلاماً :

بنتم و بنّا فما ابتلّت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفّت مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضى علينا الأسى لولا تأسّينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً لياليا

و يبلغ به الوله حدًّا يستسلم فيه للدموع ، و يقنع بالطيف والذكر بعد اليأس القاتل المرير :

أبكى وفاءً وإن لم تبذلى صِلةً فالطيف يقنعنا والذكر يكفينا
وفى الجواب متاع إن شفعت به بيض الأيادى التى ما زلت تُولينا

---

(١) لغة فى هلا .

عليك منّا سلام الله ما بقيت صبابة بك نخفيها فتخفينا[1]

ويمضى ابن زيدون حياته ينشد الشعر مردداً ذكرى ولّادة ، فتراه فى رحاب المعتضد وفى تهنئته بالعيد يستهل القصيد بقوله :

أما فى نسيم الريح عرفٌ معرِّفُ انا هل لِذات الوقف[2] بالجزع موقفُ
فنقضى أوطار المنى من زيارة لنا كلف منها بما نتكلف
غيارَى يعـدُّون الغرام جديرة بها والهوى ظلماً يغيظ ويؤسف
يودون لو يثنى الوعيد زَماعنا[3] وهيهات ريح الشوق من ذاك أعصفُ

وان ابن زيدون ليخجل ويحس أنه ملوم من الناس فيما لا حيلة له فيه فيعتذر إليهم بما يحسه من شوق ولهفة وأسى :

خليلىَّ مَهْلاً لا تلومَا فإننى فؤادى أليفُ البث والجسم مدنفُ
فأعنفُ ما يلقى المحبُّ لجاجة على نفسه فى الحب حين يعنّفُ
وإنى ليستهوينىَ البرقُ صبوةً إلى برق ثغرٍ إنْ بدا كاد يخطفُ

بل إنه وهو فى سجن ابن جهور يكتب إليه مستشفعاً مستعطفاً فلا ينسى ولّادة بل يبدأ رسالته الشعرية بذكر ولادة الذى لا يبرح خياله، والذى يتمثله فى كل لحظة وفى كل ما حوله :

ما جال بَعدك لَحظِى فى سَنَا القمرِ إلا ذكرتك ذكر العين بالأثرِ
ولا استطلتُ ذَماء الليل من أَسَفٍ إلا على ليلة سَرَّتْ مع القِصرِ
أما الضنى فجفَتْهُ لحظة عَنَنٌ[4] كأنها والردى جاءا على قَدَرِ
لا لهو أيامه الخالى بمرتجع ولا نعيم لياليه بمنتظرِ
مُنًى كأن لم يكن إلا تذكُّرها إن الغَرَام لَمُعتادٌ مع الذكرِ

---

(١) تظهرنا . (٢) السوار . (٣) العزم . (٤) عارضة .

والمحب دائماً فى أمل لقاء محبوبه ولو أيقن أن هذا اللقاء ضرب من المحال ، فإنه لا يأبى أن يخدع نفسه و يعللها بكاذب الأمانى . وهكذا كان ابن زيدون فى حنينه المتواصل إلى غرام ولّادة :

هل راكب ذاهب عنهم يحيّينى ... إذْ لا كتابَ يُوافِينى فيُحْيِينى
قد رمت إلّا ذماء فىّ يمسكه ... أن الفؤاد بلقياهم يرجّينى
ما سرّح الدمع من عينى وأطلقه ... إلا اعتيادُ أسى فى القلب مسجون

بل إن جذوة الحب الصادق تبقى متقدة أبداً فى قلب العاشق الصب لا يطفئها علمه بغدر الحبيب ولا بهلاكه فى سبيل الحب . . إنه الحب الخالد الملهم الذى خلق العباقرة والعظماء .. إنه الحقيقة الأبدية والقوة الباقية على الدهر :

سَتَبْلَى الليالى والودادُ بحالِهِ ... جديدٌ وتفنَى وهو للأرض وارثُ
ولو أننى أقسمت أنك قاتلى ... وأنىَ مقتولٌ لما قيل : حانث

وشعر ابن زيدون يمتاز إلى جوار العاطفة الصادقة ، بالصنعة المتقنة ، وجمال الأسلوب ، وحسن التأليف ، ودقة الانسجام ؛ وهى ما تميز شاعراً عن أخيه إذا اتفق لهما الحديث عن معنى واحد . وما أكثر ما تكرر المعانى فى شعر الشعراء . . . وهى ميزة اشترك فيها ابن زيدون أو بحترى المغرب مع بحترى المشرق .

و إن ابن زيدون ليحس بتفوقه وعبقريته إحساساً عميقاً ، و يعتز بنفسه حتى وهو فى ذل الأسر سجيناً ؛ فاستمع إليه فى رسالة إلى صديق من الوزراء :

إنْ قَسَا الدهر فللما ... ء من الصخر انبجاسُ
ولئن أمسيتُ محبو ... ساً فللغيث احتباسُ
يَلْبَدُ الوَرْدُ(١) السَّبَنْتَى(٢) ... وله بعدُ افتراسُ

---

(١) الأسد . (٢) الجرىء .

فتأملْ كيف يغشَى مُقْلةَ المجـد النُّعاسُ
ويُفَتُّ المِسكُ فى التُّرْ ب فيُـوطَا ويُداسُ

بل هو يذهب إلى التصريح فى قصيدة أخرى حيث يقول :

وهو الدهر ليس ينفك ينحو بالمصاب العظيم نحو العظيم

لـكن هـذا العظيم بَشَرٌ يحسُّ ويألم ، ويشعر بالمرارة لِما آل إليه حاله من سجن وإذلال بعد عز وإكبار ؛ وتمضى به الأيام وتذهب صيحاته واستغاثاته وشفاعاته سدى ، فنرى الحـكمة يجرى بها لسانه ، ويرسلها شعراً يفلسف به آراءه فى الحياة بعد خبرته الطويلة بصروفها وخداعها :

هرمتُ وما للشيب وَخْطٌ بمفرقى وكائنْ لِشَيْبِ الهمِّ فى كَبِدِى وخْطُ
وطاوَلَ سوء الحال نفسى فأذ كَرَتْ من الروضة الغنّاء طاوَلَها القَحْطُ
مئون من الأيام خمسٌ قطعتها أسيراً وإن لم يبدُ شدٌّ ولا قَمْطُ(١)
أتدنو قطوف الجنّتين لمعشرٍ وغايتى السِّدْرُ(٢) القليل أوالخَمْطُ(٣)
وما كان ظنّى أن تغرَّنِيَ المُنَى وللغِرِّ فى العشواء مِنْ ظنِّه خَبْطُ
أما وأرَتْنى النجمَ موطئَ أخْمَصِى لقد أوطأتْ خدِّى لأخمص مَنْ يَخْطُو

وإنه ليذكر قرطبة وحبه فتفيض نفسه حسرات على أيامها ومعانيها وهواه وتقطر رقة فى قوله :

أقرطبةَ الغرّاء هل فيك مطمعُ ؟ وهل كبدٌ حرّى لبَيْنِكِ تنقعُ ؟
وهل لليالى الحميدةِ مرجعُ ؟ إذِالحسنُ مرأًى فيك واللهوُ مسمعُ
وإذْ كَنَفُ الدنيا لديك موطَّأُ

---

(١) القيد . (٢) النبق . (٣) كل نبت أخذ من المرارة فتعذر أكله .

أليس عجيباً أن تشطّ النوى بكِ فأحيا كأنْ لم أنسَ نفحَ جَنابكِ
ولم يلتئم شعبي خلال شعابكِ ولم يك خَلْقي بدؤه من ترابكِ
ولم يكتنفني ـ من نواحيك ـ مَنْشَأٌ

معاهد أبكيها لعهـدٍ تصرَّما أغضَّ من الورد الجنيّ وأنعما
لبسنا الصِّبا فيها حبيراً منمنما وقُدْنا إلى اللذّات جيشاً عَرَمْرَماَ
له الأَمن ردءٌ والغَدَاوةُ مَرْبأُ

ولقد كان شعر ابن زيدون سجلا رائعاً لحياة العرب فى الأندلس فى تلك الحقبة المترفة من تاريخهم ، فاستمع إليه يصف مجلس السمر مع ولّادة وما فيه من خمر وطرب وموسيقى :

لم نجفُ أُفقَ جمالٍ أنت كوكبهُ سالين عنه ولم نهجُرْهُ قالِينا
نأسى عليك إذا حُثّتْ مشعشعةً فينا الشَّمُول وغنّانا مغنِّينا
لا أكؤس الراح تُبدى من شمائلنا سِيما ارتياحٍ ولا الأوتارُ تُلهينا

وقد ساعد حجاب ولّادة السهل أن المبذول ابن زيدون على أن يكثر من الوصف الواقعى للمرأة وجمالها ، وأن يأتى فى غزله بصور قد لا تدانيها أشد أنواع الواقعية الحديثة كقوله :

فرشفتُ الرضاب أعذبَ رشفٍ وهصرتُ القضيبَ ألطفَ هَصْرِ
ونعمنا بلفِّ جسمٍ بجسمٍ للتصافى وقَرْع ثغرٍ بثغرِ

أو قوله :

مَصانعُ تجتذبُ القُلوبا
حيث ألفتُ الرشأَ الربيبا
مخالفاً فى وصـله الرقيبا

كم بات يدرِى[1] ليلَه الغِرْبيبا
لما انثنى فى سُكره قضيبا
تشدو حمامُ حَلْيِهِ تطريبا
أرشف منه المبسمَ الشَّنيبا[2]
حتى إذا ما اعتنّ[3] لى مُريبا
شبابُ أفقٍ همَّ أن يَشيبا
بادرتُ سعياً . . . هل رأيت الذيبا ؟
هَصَرْتُهُ حلو الجَنَى رطيبا

أليست هذه ليلة ناعمة يختلسها الشاعر مع حبيبته فى نشوة من العناق والقبل حتى مطلع الفجر ؟

والمديح شائع فى شعر ابن زيدون ، لكنه فى معظم الأحيان يصدر عن شعور صادق . . . شعور الوفاء نحو ممدوحه وواجب الشكر على نعمه ؛ و إنك لتحس بعزة نفسه وأنفته خلال مدائحه كما لو كان يكتب للفخر بنفسه . فاستمع إليه يقول فى معرض مديحه لأبى الحزم بن جهور :

أنا سيفك الصَّدِئُ الذى ـ مهما تَشَأْ ـ تَعِد الصِّقَالَ إليهِ والتذريبا[4]
كم ضاق بى من مذهبٍ فى مطلبٍ فَتَنَيْتَهُ فَسُحَ المجالِ رحيبا
وزها جناب الشكر حين مطرته بسحائب النعمى فَرُدَّ خصيبا

ونفس ابن زيدون تطرب للجمال وتهتز له ، وديوانه ملىء بألوان من جمال

---

(١) يحتال .
(٢) صفة من الشنب برد وعذوبة فى الأسنان .
(٣) اعترض .
(٤) التحديد .

الطبيعة وصورها العجيبة ، يضفى عليها من روحه فتهتز وتمور بالحياة لما كان له من حظ كبير فى حسن الطبيعة . . . استمع إليه يصف التفاح :

أتتك بلون المحب الخجِلْ تخالط لون المحبّ الوَجِلْ
ثمارٌ تضمَّنَ إدراكها هواءٌ أحاط بها معتدلْ
تأتى[1] لإلطاف تدريجها فمن حَرِّ شمسٍ إلى برد ظِلّْ
إلى أن تناهَتْ شفاء العليل وأُنسَ المشوق ولهو الغَزِلْ
فلو تجمد الراحُ لم تَعْدُها وإنْ هِيَ ذابت فخمرٌ تحِلُّ

وهو إذ قلاه الحبيب لا يجد ملاذًا إلا فى الطبيعة يبثّها شكاته ، ويناجيها ويتحدث إليها ، حتى إنك إذ تسمع شعره ذاك تحسبه من شعراء الرومانتيك المعاصرين الذين جُنُوا بالطبيعة ووجدوا فيها المهرب من واقع الحياة :

يا سارىَ البرق غادِ[2] القصر واسْقِ به من كان صِرْف الهوى والودّ يسقينا
واسألْ هنالك هل عنّى تذكُّرُنا إلْفًا تذكُّره أمسى يعنّينا
ويا نسيمَ الصَّبا بلِّغ تحيّتنا مَنْ لو على القُرب حيًّا كان يُحْيِينا

ومن طول ما برّح به الهوى أصبح لا يذكر مكانًا إلا مقرونًا بولّادة وذكراها ، ومع ذلك فإنه يحضرنى بيت من الشعر فى وصف صفو الزمان مشبهًا إياه فى صفائه بالندى المتساقط على صفحات الورد ... إنه من أبدع ما طالعت فى تصوير هذا الصفاء .

زمن كما راق السقيط من الندى يستنُّ[3] فى صفحات ورد يانع

وقبل أن نختتم حديثنا عن ابن زيدون لا بدّ من أن ننوِّه بعلمه وفضله ، فقد

---

(١) ترفق . (٢) باكره بالغمام . (٣) ينصب .

كان من علماء زمانه الأعلام ، ولو أن صفة الشعر غلبت عليه فى كل أعماله .

استمع إليه يصور تلك المعانى الفلسفية عن الدهر والصبر والإيمان فيضعها فى قالب من الشعر الجميل ، وذلك لأنه يحس المعنى بوجدانه قبل أن يجريه على لسانه :

هو الدهر فاصبر للذى أحدث الدهر ... فمن شِيَمِ الأبرار فى مثلها الصبرُ
ستصبر صبر اليأس أو صبر حسبةٍ ... فلا تُؤثر الوجهَ الذى معه الوِزْرُ
حذارك من أن يعقب الرزء فتنة ... يضيق لها عن مثل إيمانك العذرُ

وله نثراً عدةُ رسائل من أشهرها : « الرسالة الجدية » . وقد كتبها فى سجنه ، وغلب على أسلوبها التصوير الشعرى باستعاراته ومجازاته ، فاستمع إليه يقول معتذراً عن خطئه فى حق أبى الحزم : « فلا غرو قد يغص بالماء شاربه ، ويقتل الدواء المستشفى به ، ويؤتى الحذر من مأمنه ، وتكون منية المتمنى فى أمنيته ، والحين قد يسبق جهد الحريص . . . هل أنا إلا يد أدماها سوارها ، وجبين عض به إكليله ، ومشرفى ألصقه بالأرض صاقله » .

***

حقًّا ما أصدق شوقى إذ يقول :

ابن زيدون عبقرىُّ زمانهْ ... قصّر المحسنون عن إحسانهْ
أخذ الروم فى الجزيرة عنه ... ومشوا فى خياله وافتنانهْ

ولادة بنت المستكفى

هى ولّادة بنت المستكفى بالله محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر لدين الله أمير قرطبة الذى بايعه أهلها بعد خلع المستظهر .

ولقد ولدت وشبّت وشابت فى الأندلس فى أوج نهضتها وحضارتها وازدهار علومها وفنونها فى بيئة كفلت فيها الحرية إلى أقصى حدودها . . . حرية القول . . . حرية الاجتماع . . . حرية البحث العلمى المجرد دون النظر إلى أى اعتبار آخر ، فتعشقت ولّادة هذه الحرية وعبدتها ، وآثرت حريتها على كل اعتبار آخر . وقد كان لمبالغتها بحرّيتها وإسرافها فى استعمال حقها فى الحرية إلى أقصى مداه وأكثر ؛ أثره فى إشاعة الشائعات حولها وفى افساح المجال للمتقولين للنيل من كرامتها ومكانتها . . . ولقد ساعد على ذلك ما كانت تتمتع به « من نهاية الظرف والأدب فى حضور شاهد ، وحرارة أوابد ، وحسن منظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر ؛ وأن مجلسها بقرطبة كان منتدى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، وكان أهل الأدب يعشون إلى ضوء غرّتها ، كما تهالك أفراد الشعراء والكتّاب على حلاوة عشرتها ، وعلى سهولة حجابها ، وكثرة منتابها ؛ وهى تخلط ذلك بعلوّ نِصاب ، وكرم أنساب ، وطهارة أثواب ؛ لكنها كانت قليلة المبالاة تجهر بلذاتها متى شاءت[1] » .

ولم تكن ولادة تنبهُ بكرم نسبها ، وجمال خلقها ، وسحر هذا الجمال وفتكه وقوته وأسره ، وما امتازت به من ظرف وبديهة حاضرة وحديث عذب فحسب ؛ بل كانت أيضاً شاعرة أديبة جزلة القول حسنة الشعر ، تناضل الشعراء ، وتساجل الأدباء ، وتفوق البرعاء . وقد كتبت بالذهب على الطراز الأيمن :

---

(١) نفح الطيب ج ٢ .

أنا والله أصلح للمعالى وأمشى مشيتى وأتيهُ تيها

وليس بعد ذلك قوة ، بل ليس بعد ذلك غرور فى الاعتداد بالنفس والشعور بتفوقها ومكانتها بين الناس ، وهو ما جعلها تتعالى على الوزراء والأمراء ، وتعتقد أن الجميع دونها مكانة ومنزلة .

أما ما كتبته على الطراز الأيسر .

وأُمكِنُ عاشقى من صحن خدّى وأُعطى قُبْلَتى مَنْ يشتهيها

فهو صورة للحرية التى كانت تسبغها على نفسها ومدى تحللها ، بل تحلل البيئة كلها من كل القيود والمواضعات ؛ ورغم ذلك فقد تواترت الأنباء عن ولّادة بأنها اشتهرت بالصيانة والعفاف .

والمطالع لتاريخ الأندلس فى هذه الحقبة التى أظلت ولّادة يهوله ما أغرق فيه أمراؤها من ترف ومجون ، وما شغلوا به من فنون اللهو وابتكار أسبابه ، وما سعوا إليه من أنواع المتعة واللذة والشهوات المهلكة ؛ لاهين عن أمور المملكة وأسباب الجهاد ، غافلين عن عدو يتربص بهم الدوائر ؛ بعد أن تفرقت الأندلس بينهم إلى إمارات صغيرة تتنافس وتتناحر ، فكان ذلك إيذاناً بمغيب شمس الحضارة العربية عن هذه البلاد و بدء أفول نجمها .

ولقد انتقض الإفرنج عليهم وانتزعوا طليطلة عام ٤٧٨ هجرية ، أى قبل وفاة ولّادة بعامين أو ستة على أرجح الروايات ، فأفاقوا قليلا للنُّذُر ، لكنهم ما لبثوا أن عادوا سيرتهم الأولى من لهو ومجون . وتفيض صفحات التاريخ بأنباء ولّادة وغرامياتها ومغامراتها الجريئة فى ميدان الحب والغزل ، وكان من عشاقها الأصبحى ، وقد كتبت إليه لما أولع بها بعد طول تمنّع تعده اللقاء فقالت :

ترقَّبْ إذا جنَّ الظلامُ زيارتى فإنى رأيت الليل أكتم للسرِّ

و بى منك ما لو كان بالشمس لم تَلُحْ و بالبدر لم يطلعْ ، و بالنجم لم يَسِرْ

وقد وفت بوعدها له . ويبدو لنا من الأبيات التالية أنها كانت تكتم له بين الضلوع هوى مبرحاً وشوقاً عظيما ضاق به فؤادها فلم تستطع عند فراقه أن تكتم ما تحسه من لوعة وأسى لابتعاده عنها :

ودَّع الصبر محبٌّ ودَّعك ذائعٌ من سرِّه ما استودعَكْ
يقرع السنَّ على أن لم يكنْ زاد فى تلك الخُطَى إذ شيَّعك
يا أخا البدر سناءً وسَنَا حفظ الله زماناً أطلعك
إن يطُلْ بعدك ليلى فلكم بتُّ أشكو قِصَرَ الليل معك

كما كثر فى حب ولّادة المتنافسون ، وكان لا بد أن تظهر بينهم روح الحقد والعداوة فيتباروا فى القول ، ويعتدى بعضهم على بعض ؛ ومن أمثلة ذلك مما كان من التنافس فى حبها بين الوزيرين أبى عامر بن عبدوس وابن زيدون . وقد قال الأخير لغريمه :

أثرت هزبر الثرى إذ ربَضْ ونبَّهته إذ هدا فاغتمض
وما زلت تبسط مسترسلاً إليه يد البغى لما انقبض
حذارِ حذارِ فإن الكريم إذا سِيم خسفاً أبى فامتعض

وقد ظن ابن زيدون أنه الأثير لدى ولّادة فقال أيضاً :

وغرَّك من عهد ولّادةٍ سرابٌ تراءى وبرقٌ ومض
هى الما يعزُّ على قابض ويمنع زبدتهُ من مخض

وقد هام ابن زيدون بولّادة ، وخلع فى هواها عذاره ، وأرسل أجود أشعاره . لكن ولّادة كانت لها جارية سوداء بديعة وقد ظهر لها أن ابن زيدون مال إلى هذه الجارية فشقّ عليها الأمر ، وعزّ عليها أن تجرح كبرياؤها هذا الجرح الغائر

الذى أهان سلطان جمالها ، فكتبت إلى ابن زيدون هذه الأبيات التى تقطر مرارة وأسى :

لو كنت تنصف فى الهوى ما بيننا ... لم تهوَ جاريتى ولم تتخيّرِ
وتركت غصناً مثمراً بجماله ... وجنحت للغصن الذى لم يثمرِ
ولقد علمت بأننى بدرُ السما ... لكن ولعت لشقوتى بالمشترى

وكانت قطيعة بينهما ، وتابعت ذلك بهجو ابن زيدون بأشعار كثيرة منها ما كان مقذعاً يفيض بالنَّيل من شخصه ، لكن أثر هذه القطيعة كان على ابن زيدون أشد وأقسى ، فأرسل الشعر يفيض لوعة وأسى وشجى يستعطف قلبها الذى لم يلن له ثانية . ومن أشهر قصائده فى ذلك تلك التى قال فيها :

أضحى التنائى بديلًا من تدانينا ... وناب عن طيب لُقيانا تجافينا
بِنْتم وبنّا فما ابتلّت جوانحنا ... شوقاً إليكم ولا جفّت مآقينا
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضى علينا الأسى لولا تأسّينا
حالت لفقدكم أيامنا فغَدَت ... سوداً وكانت بكم بيضاً لياليا

ولقد عاشت ولادة حياتها لم تتزوج ، ويرجح لدىَّ أن ذلك راجع لما امتازت به من طبيعة فنّان يؤثر حريته على كل قيد ، ولو كان قيد الزواج وما وراءه من التزامات الأسرة ؛ إلى جانب ما أحاطت به نفسها من أسباب العظمة التى أشاعت المهابة منها فى نفوس خلطائها .

* * *

وقبل أن نختتم هذا الحديث نود أن نلمع إلى ما امتازت به ولّادة من روح الفكاهة المرحة والسخرية اللاذعة والبديهة الحاضرة ، ومن أمثلة ذلك ما يحكى من أنها مرّت ذات يوم على الوزير ابن عبدوس ، وكان جالساً أمام داره فى جمع من أعوانه وقد تكونت أمام الدار بركة من ماء الأمطار وبها بعض الأقذار فقالت :

أنت الخصيبُ وهذه مصرُ فتدفّقا فـكلاكما بحرُ

وتركته لا يحير جواباً ، وتركت لنا صورة عجيبة من صور السخرية فالخصيب أمير مصر المشهور بالـكرم والعطاء يفيض بهما كالبحر والندى ، ولقد اجتمعت ببابه الشعراء طمعاً فى صِـلاته ؛ أما ابن عبـدوس فهو فى نظرها لا يفيض إلا بالأقذار . . .

---

obeikandl.com

ابن زهرك
شاعر هالك

يا من يحنُّ إلى نجدٍ ونادِيها غرناطةٌ قد ثوت نجدُ بواديها
قف بالسبيكة وانظر ما بساحتها عقيلة والكثيب الفرد جاليها
تقلدت بوشاح النهر وابتسمت أزهارها وهى حلىٌ فى تراقيها

* * *

كم حولها من بدور تجتنى زهراً فتحسب الزهر قد قبّلن أيديها
حصباؤها لؤلؤ قد شفّ جوهرها والنهر قد سال ذوباً من لآليها

* * *

يزيد حسناً على نهر المجرّة قد أغناه دُرّ حَبابٍ عن درارِيها

* * *

وساجع العود فى كفّ النديم إذا ما استوقف الطير يدنيها ويغريها
يبدى أفانين سحرٍ فى ترنُّمه يصبى العقول بها حسناً ويسبيها

* * *

فباكرِ الروض والأغصان مائلة يثنى النفوس لها شوقاً تثنّيها
لم يرقص الدوح بالأكمام من طرب حتى شدا من قيان الطير شاديها

* * *

غرناطة . . آنسَ الرحمنُ ساكنَها باحت بسرٍّ معانيهـا أغانيها
أعْدَى نسيمُهُم لطفاً نفوسَهُمُ فِرقّة الطبع طبعٌ منه يعديها

أترى هل كان أبو عبد الله محمد بن يوسف بن زمرك يصف جنة الخلد ، أم هو قد رأى فى جمال غرناطة الذى خلّده جنانَ الأرض ونعيم الدنيا الذى لا يدانى فعكف حياته يصور هذا الجمال ، ويحدث الناس حوله والأجيال من بعده عنه بمثل هذا الشعر الذى يفيض حناناً إلى غرناطة وحبًّا لما فيها من طبيعة غنية بجمالها مدلة بحسنها ، وأناسٍ أحبوا الحياة واستمتعوا بما فيها من أسباب الجمال والمتعة ، وعشقوا النغم والموسيقى وأبدعوا فيها . . . حتى قال :

خُلِقت من عادتى أُلوفا أحنُّ للإلْف والسَّكَنْ

وما كان حنينه إلا لبيئة تألف وتستحق الحب والتقدير ، وهى بيئته التى رعت صباه وشبابه الباكر ، فهو قد ولد بالبيازين من أعمال غرناطة سنة ٧٣٣ هجرية (فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى تقريباً) وفى أواخر عهد العرب بالأندلس الحبيب ، فسجّل هذا الغروب الحزين فى شعره صوراً « قد مزجت بين وقائع الحياة وعناصر الطبيعة فجمعت جمعاً عجيباً بين الطبيعة الغاربة والإنسان الفانى ، وإذا الفناء والغروب فى شعره يختلطان اختلاط أمل وشوق ، لا اختلاط حزن ويأس . . ومن وراء هذا الشعر كانت صورة الطبيعة الأندلسية بكل جمالها ، وصورة غرناطة بما قد أحيطت به فى عصرها وإلى اليوم من الحب والحنين ، وصورة الحمراء بما قد كان يدار فيه من حياة صاخبة عاصفة . . اتخذ ابن زمرك حياة ملك وحياة أمة مكافحة فى سبيل البقاء وحياً له . . حياة أمة قد أريد لها المغيب فلم ترض بأن تغرب فقاومت »[1] ، فكان كفاحاً قوياً رائعاً يشوبه شىء من اليأس والحزن مع كثير من القوة التى لا تقهر والتى صاحبته حتى آخر مراحله . .

فى تلك الفترة المضطربة من حياة العرب فى الأندلس اتصلت الأسباب بينهم وبين العرب والبرابرة من سكان شمال إفريقية ، وانتقل إلى إفريقية الكثير من الآثار العلمية والعلماء الذين كانت تزداد هجرتهم كلما ضاقت بهم رقعة الأرض

---

(١) « ثم غربت الشمس » للدكتورة سهير القلماوى

الأسبانية واشتهرت مدرسة فاس فى مراكش بمن فيها من علماء وكتب ، واضطر ابن زمرك إلى الرحيل إليها للاستزادة من علوم الفقه والدين واللغة .

وعاد ابن زمرك مع الغنىّ بالله الذى كان قد لجأ إلى مراكش إثر فتنة فى غرناطة أقصته عن عرشه . . عاد مع آخر ملك عربى عرفت الأندلس فى ظله أمن الاستقرار وطمأنينة القوة ، ليكون معه آخر شعراء الملوك ، أو آخر هذا النوع من الشعراء الذين عرفتهم الدولة الإسلامية . . فكان له شاعراً ووزيراً بعد أستاذه لسان الدين الخطيب .

عاد ابن زمرك ليحتل مكانه فى الصدارة بين شعراء الأندلس فى عصره ، وقد دانت له أساليب اللغة والنظم إلى جانب شاعرية مرهفة وإحساس دقيق وعقل ذكىّ متوقد ، فجعل يرسل شعره فى وصف غرناطة والغنىّ ، يسجل هذا الجمال حفراً على أعمدة الحمراء ؛ فلنستمع إليه فى أحد موشحاته يصف جمال الطبيعة وهو مأخوذ بهذا الحسن تسرى فى أوصاله نشوة كنشوة الخمر :

فى كؤوس الثغر من ذاك اللَّعَسْ ... راحةُ الأرواح
وتغشّى الروض مسكىُّ النَّفَسْ ... عاطر الأرواح
وكسا الأرواح وشياً مُذْهَباً ... يبهر الشّمسا
عسجدٌ قد حلّ من فوق الرُّبَا ... يبهج النفسا
فاتخذ للهو فيه مركبا ... تلحق الأُنسا
منبر الغصن عليه قد جلسْ ... ساجع الأدواح
حللَ السندس خضراً قد لبس ... عِطفه المرتاح

بل إن ابن زمرك شاعر مغرم بالحياة يعشق جمالها ، ويريد أن يعبّ من محاسنها بغير حساب ، بل يودُّ لو أن الشعب كله من حوله يشركه هذه السعادة التى يحسها وهو يهيم بين مناظر الطبيعة الجميلة وصورها التى لا تتناهى فى غرناطة .

وجه هـذا اليوم باسمْ وشذا الأزهار ناسمْ
هاتِهـا صاحِ كؤوسا جالباتٍ للسرور
وارتقبْ منها شُموسا طالعات فى حبورْ
ما ترى الروض عروسا فى حلى نَوْرٍ ونُور

لـكن الشاعر يحس إحساساً غريزيّا بأن كل ما حوله إلى غروب .. إلى فناء ، فنراه يسرع دائماً إلى الأصيل ومغرب الشمس ونهاية النهار حيث الحياة الهادئة الناعمة بعد الفراغ من العمل ، وحيث يجد نديماً يلهو معه ؛ لـكنه لهو تشوبه فـكرة الغروب ، فترتسم على صور الشاعر فى مزيج رائق من الألم الحزين والسرور المريح :

قُمْ ترَ هذا الأصيل شاحبا حسنه قد راقْ
ولأَذيال الغصون ساحبا فى حُلَى الأوراق
ونديم قال لى مخاطبـا قول ذى إشفاق
عادة الشمس بغرب تختلس هات شمس الراح
إن أرانا الجو وجهاً قد عبس أوقد المصـباح
ووجوه الشَّرْبُ تغنى عن شموس كلما تجلى
بلحاظ أسكرتنا عن كؤوس خمرها أحـلى
ما زمان الأُنس إلا مختلس فاغتنم يا صاح
وعيون الشهب تذكى عن حرس تخصم النصّـاح

ومع ذلك فالشاعر يحاول أن يروِّح عن نفسه و يصرف عنها فـكرة النهاية والفناء التى تطارده ؛ وهل هناك أيسر من مجلس الخمر وسمّاره ومجمع الندامى ، ولنستعض عن ضوء الشمس بضوء المصباح . . ذلك المصباح الذى يتردد ذكره كثيراً فى شعر

ابن زمرك ، ويتخذه فى الليالى أنيساً يناجيه ويفضى إليه بذات نفسه ، ويتعزى بضوئه عن الواقع المؤلم . . .

لكن الأيام تمضى والشباب يتضاءل حثيثاً ، وقد خلا المجلس ممن يؤنسه ويسليه :

ولربَّ ليلٍ بالوصال قطعته ... أجلو دجاه بأوجه الندماء
أنسيت فيه القلب عادة حلمه ... وحثثت فيه أكؤس السرّاء
جاريت فى طلق التصابى جامحاً ... لا أنثنى لمقادة النصحاء
أطوى شبابى للمشيب مراحلا ... بر واحل الإصباح والإمساء
يا ليت شعرى هل أرى أطوى إلى ... قبر الرسول صحائف البيداء ؟

وسط هذه الأحداث المتعاقبة والحروب المتتابعة مع الإسبان وحلفائهم تارة ، ومع البربر تارة أخرى ؛ لم ينس ابن زمرك عمله كشاعر الملك الذى يجب عليه صياغة المديح لمليكه فى كل مناسبة سعيدة ، فقدم لنا لوناً جديداً من ألوان المديح استغنى فيه عن عادة شعراء العرب المتقدمين . . عادة الوقوف بالأطلال أو النسيب . . بوصف الطبيعة وصفاً لا يحس معه حرجاً ولا صعوبة عند الانتقال إلى الحديث عن ممدوحه لأن الملك والطبيعة متحدان منذ أول الكلام عن الطبيعة ، إذ أن هذ الملك عنصر من جمال الطبيعة :

أرقتُ لبرقٍ مثل جفنىَ ساهرا
ينظِّم من قطر الغمام جواهرا
فيبسم ثغر الروض عنه أزاهرا

وصبح حكى وجه الخليفة باهرا ... تجسّم من نور الهدى وتجسّدا

شفانىَ معتلّ النسيم إذا انبرى
وأسند عن دمعى الحديث الذى جرى
وقد فتّق الأرجاء مسكاً وعنبرا

كأن الغَنِى بالله فى الروض قد سرى فهبّت به الأرواح عاطرة الرِّدا

والحمراء ذلك القصر العتيد الذى خلد أروع ما وصل إليه فن المعمار فى المدنية الإسلامية كان له نصيب عظيم من شعر ابن زمرك حتى قال فيه :

وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت به ولم تك فى أفق السماء جواريا

لـكن شعر ابن زمرك فى الغزل يحمل المرء على كثير من التفـكير لمـا يكتنفه من غموض لا يبين :

زار الخيال بأيمن الزوراء فَجَلَا سناه غياهبَ الظلماء
وسَرَى مع النسمات يسحبُ ذيله فأتت تنمُّ بعنبر وكباء
هـذا وما شىء ألذُّ من المُنى إلا زيارته مع الإغفاء
بتنـا خيالين التحفنا بالضنى والسقم ما نخشى من الرقباء
يا سائلى عن سرّ مَنْ أحببته السرُّ عندى ميت الأحيـاء
تالله لا أشـكو الصبابة والهوى لسوى الأحبة أو أموت بدائى

ترى لمَ كل هذا الإغراق فى الغموض ؟ أكان ابن زمرك لمـكانته فى الدولة وتصدُّره للوزارة يخشى أن ينال منه شانئوه و يتهموه بالابتذال أوالاستهتار ؟ أم كان لصلته بالمتصوفة ورجال الدين — لا سيما فى مرحلة الدرس بفاس — أثرها فى إيثاره هذا الغموض الذى يضفى على شعره صبغة من التصوف ؟

يخيل إلىّ إلى أن ابن زمرك كان يعانى فراغاً مروعاً فى حياته ، و يحس بأن كل ما فيها مزعزع لا قرار له ، و بأنه لمـكانته محسود من الناس ؛ والناس من حوله

يحيكون له الدسائس ليوقعوا به ، وهذا أمر كان شائعاً جدًّا فى دويلات العرب بالأندلس فى أيامها الأخيرة ؛ لذلك كنا نرى ابن زمرك فى كثير من أدوار حياته وحيداً يعانى من آلام وحدته حتى ليقضى الليل لا يؤنس وحشته إلا المصباح ، فيناجى هذا المصباح و يبثه شكاته :

لقد زادنى وجداً وأغرى بى الجَوَى ذبال بأذيالِ الظلام قد التفّا
تشير وراء الليل منه بنانه مخضّبة والليل قد حجب الكفّا
تلوح سناناً حين لا تنفع الصبا وتبدى سواراً حين تثنى له العطفا
قطعت به ليلا يطارحنى الجوى فآونةً يبدو وآونةً يخفى

أو تراه فى قصائد عدة يبث غرناطة الحب ، و يختصها بالهوى :

غرناطةٌ منزل الحبيبِ وقربها السُّؤلُ والوَطَرْ
تبهر بالمنظر العجيبِ فلا عدا رَبْعَها المَطَرْ

لكن ابن زمرك يؤلمه لؤم الناس وحسدهم حتى يسائل مستنكراً : « أَبِحسَّةِ فوّض لى الملك ما فوّض من أمور الدولة ؟ » . . . ثم هو يترك أمور السياسة مختاراً ، و يعكف على الدرس فى جامع مالقة ، ثم فى مسجد الحمراء يعلم الناس الفقه والتفسير ، فيتوافد الناس على درسه يتزاحمون لينهلوا من علمه الغزير . ومات الغنىُّ بالله ، وخلفه ملك آخر لم يطق صبراً على ما يوجهه ابن زمرك للولاة فى درسه من نقد وتجريح ، فألقى فى سجن قصبة المرية ، وخلف ذلك الملكَ ملكان عفا آخرهما عن ابن زمرك وأعاده إلى الوزارة فى قصر الحمراء ، ولكن يد الغدر والخيانة لم تمهله فقتله مع أولاده أحد الخدم ذات مساء وهو قائم فى بيته والمصحف الكريم بين يديه يطالع فيه .

جميل صدقي الزهاوي

أما في بَنِي الأرض العريضةِ مُصلحٌ يخفِّف ويلات الحياة قَليلاَ ؟

ظل هذا السؤال وتلك الصيحة يترددان على لسان الشاعر الكبير جميل صدقي الزهاوي مدى حياته ، وما كان الزهاوي شاعراً فحسب ، بل كان فيلسوفاً ورائداً من رواد الحرية الأوائل في العراق الحديث الذين قاوموا الظلم والطغيان وصمدوا للعسف والجور ، وضحوا حياتهم في سبيل المبادئ الإنسانية النبيلة .

وُلد الزهاوي في بغداد عام ١٨٦٣ وتلقى العلم عن أبيه محمد أفندي فيضي مفتي بغداد وينتهي نسبه من ناحية أبيه إلى سيف الإسلام خالد بن الوليد ، أما أمه فكانت كردية . وقد اشتهر بالزهاوي نسبة إلى زهاو من بلاد فارس موطن جدته لأبيه ؛ وهكذا اجتمعت في دماء الزهاوي خلاصة حضارات عريقة ومدنيات تليدة كان أميناً أن يضيف من جهوده لبنة إلى بنائها ، فأجاد من اللغات العربية والكردية والفارسية والتركية ، كما أشربت نفسه علوم الدين واللغة التي تلقاها عن أبيه .

وفي عام ١٣٠١ هجرية اشتغل بالتدريس بالمدرسة السليمانية واستطاع عندئذ أن يجد من فراغه فرصة يكب فيها على دراسة الفلسفة والتعمق فيها ، وأن يتحرر بفكره من رواسب الجمود والجهل المسيطرة على مواطنيه ، وأن يتعرف على شخصيته ويبدأ في الإعلان عنها والجهر بآرائه الحرة ؛ لكن سرعان ما نبابه المقام في وطنه ، وضاق به الطغيان ذرعاً ، وأحست نفسه الشاعرة بآلام الظلم وجور الحكام وتخاذل الناس فيما حوله فقال :

ليس ليل مثل ليلى ليس يوم مثل يومى
إنما أهملنى فى ساعة الحاجة قومى

ورحل من العراق سنة ١٣١٢ هـ قاصداً استامبول مارًّا بمصر ، وكانت الحرب اليونانية قائمة ، وانتصرت قوات الخلافة ، فنظم فى ذلك قصيدة مشهورة مطلعها :

هو الفتح ألقى فى قلوب العدا هَوْلاَ وأثبت أن الحق يعلو ولا يُعْلَى

كان الشاعر يظن أن الحال فى استامبول أفضل منها فى العراق ، لـكنه لم يلبث أن تبين الحقيقة المرة ، وأدرك أن جو العاصمة العثمانية أشد نـكداً من عاصمة الرشيد فهو جو ملىء بالفتن والمؤامرات والاستبداد ، فرحل عنها بعد عام قاصداً اليمن ، لـكن السلطان عبد الحميد استدعاه ثانية إلى تركيا وحرم عليه مغادرة استامبول خوفاً من التجائه إلى مصر حيث ينفسح المجال لقلمه الحر فى مصاولة الاستبداد ؛ إلا أن السلطان عبد الحميد خلع عن عرشه واستعاد الشاعر حريته فى الرحلة إلى بقاع الأرض ، فعاود الرحيل إلى مصر وغيرها من بلاد الشرق إلى أن انتهى به المطاف إلى بغداد حيث توفى فى ٢٤ فبراير سنة ١٩٣٦ .

ولم يكن الزهاوى شاعرا محليًّا بل كان شاعرا عالميًّا لا يقصر فنه على العراق فقط ، بل هو فى معظم شعره يتحدث عن الشرق كله الذى وحدت بينه المحن والأرزاء ، وكانت صحف مصر والشام والعراق جميعاً منابر تردد صيحاته الداعية إلى الإصلاح .

ولقد تلفّت الزهاوى أول ما تلفّت فوجد نصف قوى الأمة معطلا ، ووجد ربة الأسرة فى العراق والشرق قاطبة جاهلة لا تعلم من أمور الدنيا شيئاً وهى التى يوكل إليها أمر النشء وأجيال المستقبل ، فبدأ يتحدث إلى الناس برفق ينبههم إلى أهمية هذا النصف من المجتمع .

يرفع الشعب فريقا ن إناثٌ وذكورُ
وهـل الطائر إلا بجناحيه يطيرُ ؟

ثم يدعوهم إلى الاعتراف بحق النساء عليهم والرفق بهن :

لقد أضاعت عنده من الحياة حقها
فهل تزوجت به أم ملّكته رقّها ؟
وإنما الروح التى بعسفه أرهقهـــا
إن صدقت كذّبها أو كذبت صدّقها

إن ذلك هو سر تأخر الشرق فلتمنحوا النساء حقوقهن فى الحياة والحرية :

أخّر المسلمين عن أمم الأر ض حجابٌ تشقى به المسلماتُ
ما تفكرتُ فى الحقيقة إلا واعترتنى الشكوك والشبهاتُ

أما الشباب عدّة الأمة وسلاحها فى مناهضة الضعف ومواجهة أحداث الزمان فهم أولى الناس بحمل أعباء الجهاد ، ولذلك عنى الزهاوى بالتحدث إليهم دائماً والاجتماع بهم يبث بينهم دعاواه للإصلاح ، ويستصرخ هممهم للنهوض ، ويدعوهم للعمل والجهر بآرائهم الحقة غير هيابين :

بُثّوا بألسنةٍ لكم من نار ما فى جماجمكم من الأفكارِ
سيروا إلى غاياتكم فى جرأةٍ كالسيل هدّارًا وكالإعصارِ
كونوا جميعاً سادة لنفوسكم فالعصر هذا سيد الأعصار
قولوا الحقيقة جاهرين وأعلنوا للناس ما فيها من الأسرار

وإذا كانت الحقيقة مرة والناس أعداء ما جهلوا ، فسبيل الإصلاح ملىء بالأشواك والصخور ، وعلى المصلحين احتمال الأذى لتبليغ رسالاتهم :

لا يثبّطك عن مناصرة الحق (م) صياح الغوغاء والجاهلينـــا
إن من كان بالحقيقة مغرى لا يبالى بالشتم والشاتمينـــــا
إنما يبقى الحق حقًّا وإن أغ مض عنه المكابرون العيونا

وعلى الأحرار فى كل مكان أن يعملوا فى سبيل مبادئهم مهما لاقوا من صعاب .

الحر فعّالٌ فما هو من يمارى أو يُمارَى
إن الألى غرسوا مبا دئهم سيجنون الثمارا
أنتم أحق الناس أن ترعوا لنفسكم الذمارا
ليس الذى يؤذى فيسـ كت جامداً إلا جدارا

وما كان الإصلاح إلا جهاداً ومجالدة والفوز فيه للقوة فأعدُّوا بنى الشرق أنفسكم للعمل وأعدُّوا للعمل عدَّته لأنه :

ليس الحياة سوى نزاعٍ دائم يا للضعيف به من الجبارِ
الفوز للجَلْدِ الجرىء فؤاده والويل كل الويل للخوّارِ

ولا تستكثروا الضحايا لأن الحقيقة غالبة والعالم لا يعى إلا منطق القوة :

لا تسكت الحق نار للقارعات تصوتُ
يموت للحق خلقٌ والحق ليس يموت

لكن الزهاوى ليس عنيفاً دائماً فى شعره ، بل كان شاعراً رقيق الحاشية مهذب النفس ، رقيق المشاعر ، سريع التأثر بما تقع عليه عيناه . ولقد نظم الشعر أول ما نظمه بالفارسية حتى برع فيه ثم تحول إلى العربية فاكتسب شهرة أوسع ، وظفر بقراء أكثر ، واتسعت دائرة عارفيه ومحبيه .

وككل شاعر مرهف الحس ذواق للجمال أغرم الزهاوى بالطبيعة ومباهجها ونظم فيها الكثير من الشعر كقوله :

أنتِ مما تبدينه من صفاء يا سماء العراق خير سماء
انظرينى فقد أحبّك قلبى وأحبّتك مثله حوبائى
انظرينى إذا العناديل غمّت سَحَراً فوق منكب الشجراء
انظرينى ليلاً إذا الشمس غابت بعيون النجوم فى الظلماء

انظر ينى إذا الخليفة أخفَتْ ماله فوق الأرض من ضوضاء
انظر ينى إذا الطبيعة أصغت فى الدياجى إلى خرير الماء
انظر ينى إذا الحوادث رامت هدأة فى الصباح أو فى المساء
انظر ينى إذا الخريف تراءى آسياً من أشجاره الجرداء

إن المرء ليحس ولاشك عند ما يطالع ذلك الشعر بتلك الألفة التى قامت بين الشاعر والطبيعة وقد وجد فيها مؤنساً فى وحشته يغنيه عن الناس الذين لم يلق منهم إلا شرًّا حتى أحس أنه غريب فى بيئته وحيد فى دنياه ، فقال :

أنا لا يسأل عنى أحدٌ حين أغيبُ
أنا كالرحمة مفقو د وكالحق غريبُ

ولطالما أحس الشاعر بالأسى فى دنياه ، وأشفق على نفسه من هذه الوحدة القاسية ، وقد صور هذه الحال أبلغ تصوير حين قال :

أموت بعيداً عن ديارى وعن أهلى فمَنْ ياترى يبكى حوالىّ من أجلى
أموت غريباً فى ربوع شبيبتى ولا صاحبٌ عندى يمرّض أو يسلى
سيقتادنى حتفى إلى الرمس صاغراً ويقطع عن دنياى سيف الردى حبلى

ولا شك أن المسئول الأول عن آلام الشاعر المروعة هى بيئته . . أجل فسواد الناس حوله يعيشون فى فقر مدقع وجهل مظلم ، ويقود القطيع طغاة ظَلَمَة ؛ دستورهم النفاق وبضاعتهم الفسق والخداع . . يخوّفون الناس من الحرية ومن كل دعوة إلى النهوض :

أرى الناس إلا من توفر عقله من الناس أعداء لكل جديدِ
رأيت جياعاً فاخروا بثيابهم فأضحكنى ما قد رأيت وأبكانى
وما الناس إلا خادع بمقالة يريد به الدنيا وآخر مخدوع

ولقد بلغ الزهاوى الذروة من القوة والإبداع فى تصوير ذلك المجتمع المنافق الذى يموج بالفتن ، وتغلى فيه الصدور بالحقد على حين يقتله الجوع والمرض والذل فى داليته المشهورة « النادبة والعدل » :

يحوّل عنها العين ثم يعيدها ... حذار عدّى تغلى عليه حقودها
ويغضى خلال النظرتين محاذراً ... رقيباً لها إن لم يكده يكيدها
يعز على عينىّ أن تنظرا إلى ... بلاد تسوس الناس فيها قرودها
تعيث بأهليها فتسقيهم الردى ... وتغضب من أموالهم وتبيدها
يعزُّ على عينىّ أن تريا بها ... شباباً من الأحرار صفراً خدودها
محاطين بالأرزاء فى أرض ذلة ... تهائمهـا منحوسة ونجودها
إذا أقلعت عنهم سحابة فتنة ... أظلتهم أخرى تدوّى رعودها
حياة لهم لم يبق ضمن جسومهم ... سوى شعلة فيها قريب خمودها

ويمضى الزهاوى فى تلك القصيدة فيعرض علينا صوراً شتى من الظلم والطغيان والجور الذى كان يعانيه الناس :

فكم زوجة لما دهى الظلم بعلها ... بكت فبكى فى الحجر منها وليدها
ومفجوعة أودى أخوها بعسفهم ... ووالدة قد بان عنها وحيدها
مغانٍ تظل الغانيات بأرضها ... وقد غيل حاموها تفرّى كبودها

فأين الأحرار ليضعوا حدّ الآلام الناس :

فوق خد البيض الحسان سطورٌ ... كُتبت بالدموع فيها شكاة
وهب الله للرعايا حقوقاً ... غصبتها من الرعايا الولاةُ
أرهقوكم ذلاً وأنتم سكوتٌ ... أين أين الأحرار ؟ أين الأباةُ ؟

وما كان الزهاوى يصدر فى كل ذلك إلا عن حب عميق تأصل فى نفسه . .

حب للحياة الكريمة الأبية وهل تحلو الحياة بغير الحرية . . ؟ إنها ولا شك أغلى ما فى الحياة :

غنّى لحريتنا الحبيبة المهاجرة
فقد تعود بعد ما ولت كشمس غائره
كنا بها فى حقبة من الشعوب الظافرة

لكنه يلتمس الحرية فى كل مكان من ربوع بلاده فلا يكاد يبصرها فيصرخ مستغيثاً مما يراد به :

أسائلكم ما ذا على الشاعر الحرّ إذا رام تصوير الحقيقة فى الشعر ؟
يريدون منه أن يظل محافظاً على صمته حتى يغيّب فى القبر
ولكن نفس الشاعر الحر ملؤها عواطف يدعوه إلى الجهر أو تغرى

وتضيق نفسه بالحياة وترى الموت أفضل مما تعانيه من آلام ، لكن الشاعر حريص على الحياة يخاف الموت لأنه عدم ، فيذب هذه الأفكار عن نفسه ما استطاع :

يرى النفع كل النفع فى الموت إنما أضرّ بها بين العداة وجودها
تقول له : لا تحرصنّ سفاهة على عيشة قد بان عنك رغيدها
تريد بعزم أن تفارق جسمه وتلك عليه شقة لا يريدها
تنازعه حوض المنية نفسه فتطلب ورداً عنده ويذودها

أخيراً أرى الزهاوى يتفق مع شاعر النيل حافظ إبراهيم فى إجادة التفجع والتعبير عن آلام النفس والناس ، وما أظن ذلك إلا لما لاقاه كلاهما فى دنياه من مآسٍ وأرزاء ، ولِما كانا يحسانه من مشاركة فى هذه الآلام . . . ومن أروع ما قرأت للزهاوى هذه الصورة الأصيلة لحزن الوالدة على وحيدها :

وصكّت (حنان) أمه الوجه للجوى وعضّت بأطرف البنان من الثكلِ
على رأسها تحثو التراب بكفها وتذرف عيناها المدامع كالوبل
بنيّ ليؤذينى على رزئك الأسى بنيّ و يغلى فى فؤادى كالمهل
أرى يا رجاء النفس خطبك قاتلى ويا حبذا إذ أنت تحت الثرى قتلى

لـكن الزهاوى لم يخرج إلى الناس ، ولم يندمج مع أفراد الشعب كما فعل حافظ ، بل آثر التقية والعافية فى الابتعاد عن الناس ، وظل حياته يردد هذا البيت :

أسرُّ مكان فى الطبيعة ربوةٌ إلى جانبيها روضة وغدير

---

obeikandl.com

فكان له من هذه الصراحة أعداء كثيرون حاربوه فى حياته ورزقه أعنف الحرب ؛ حتى أنه عند ما كان فى العراق وطال حنينه إلى زوجه التى خلفها فى استامبول لم يجد ما يساعده على تكاليف السفر :

قد عاقنى الإملاق عن سفرى إلى مَنْ طال معتلجاً إليه حنينى
وأنا المشوق ولست ممَّن شاقهم بقر « العذيب » ولا مَهَا « يبرين »
لكن قلبى لا يزال يشوقه ظبى أقام بدار قسطنطين

ومع ذلك فهو لا يحمل ضغينة لأحد ، بل تأبى عليه رقة مشاعره إلا أن يرجو الخير لكل العباد حتى من عاداه :

أنا والله لا أريد بأن أوقـ ـع شرًّا ولو على من يعادى
إن لى أن سمعت أنَّة محزو ـن أنيناً مرجَّعاً فى فؤادى
إن نفسى عن همها ذات شغلٍ بهموم العباد كل العبـاد

ولقد حفلت أيام حياته بالأحداث السياسية الجسيمة التى وجدت صداها فى شعره بعد أن اخترقت بصيرته النفاذة أطرها ، ووقفت على حقيقة أمرها ومعانيها ، فقال عن التمثيل السياسى الناقص :

علم ودستور ومجلس أمة كلٌّ عن المعنى الصحيح محرَّفُ
أسماء ليس لنا سوى ألفاظها أما معانيها فليست تعرفُ

أما مبادئ ولسن التى أعلنها فى أعقاب الحرب العظمى فلن تعلن للشرق سوى الخسار ، وكان تفسيرها دائماً لصالح قوم دون أقوام آخرين :

مد « ولسونُ » فى السياسة حبلا جمع النقض فيه والإبراما
فلبعض الأنام كان عصاماً ولبعض الأنام كان خصاما
ملأ الدهر فى « فيومة » فخراً وبأزمير أخجل الأياما

وقال :

أيها المسلمون لستم من الغر ب بحال تستوجبون احتراما
إنما أنتم لدى الغرب قوم خلقوا عن سوى الشرور نياما

ولقد تفاعلت شاعرية الرصافى مع الطبيعة فترجمت عنها فى صور رائعة إلا أنها صور قد شابتها مشاعره الخاصة ولوّنتها بأحاسيسه وانفعالاته النفسية من أثر البيئة وما كان يحسه فيها من التواء وجفاء ، فاستمع إليه يصف الغروب فلا يرى فى صورته إلا انعكاساً لما يحسه بين قومه من ظلم وجحود :

غربت فأبقت كالشواظ عقيبها شفقاً بحاشية السماء طويلا
شفق يروع القلب شاحب لونه كالسيف ضمّخ بالدما مسلولا
يحكى دم المظلوم مازج أدمعاً هملت بها عين اليتيم همولا
حتى توارت بالحجاب وغادرت وجه البسيطة كاسفاً مخذولا
فكأنها رجل تحرّم عزّه قرع الخطوب له فعاد ذليلا
وانحط من عرف النباهة صاغراً وأقام فى غار الهوان خمولا

ولطالما تردد هذا المعنى فى شعره حتى ليخيل للمرء أن الرصافى قد قضى حياته شقيًّا ، ومات بائساً ؛ وعاش عمره متألماً ناقماً على قومه الذين ضيعوه حتى ليصيح بهم صيحة يائس :

إذا الدُّرُّ أمسى كالسحاب محقّرا شددت به للنابحات سواجرا
وما العار فى هـذا علىّ وإنمـا على من أضاعوا مجدهم والمفاخرا

ومع كل هذا لم يفقد إيمانه بنفسه ، بل كان كأىّ فنان أصيل شديد الاعتزاز بفنه وإكرام شخصيته :

أغنت خشونة عيشى لى ذرا شرفى عما أرى بخسيس العيش من لينِ

فشرُّ العالمين ذوو خمول إذا فاخرتهم ذكروا الجدودا
فدعنى والفخار بمجد قوم مضى الزمن القديم بهم حميدا
وعاشوا سادةً فى كل أرض وعشنا فى مَواطننا عبيدا
إذا ما الجهل خيَّم فى بلاد رأيت أُسودها مُسِخت قرودا

بمثل هذا الشعر القوى الرصين كان معروف الرصافى يهدر على ضفاف دجلة منذراً قومه ، مستنهضاً هممهم ، كما كان يزأر شاعر النيل حافظ إبراهيم ليوقظ قومه والشرق معهم ، وعاش كلاهما ثائراً مثيراً يحاول إيقاظ النيام وتنبيه الغافلين إلى حقائق الحياة فى القرن العشرين . . . الحياة الدائبة الحركة السريعة التطور الممعنة فى التقدم الخاطف ، التى لا تلتفت إلى الضعيف ولا المتردد والخوّار .

وإذا كان حافظ قد ولد فى مصر عام ١٨٧١ ، فإن معروفاً قد ولد فى بغداد عام ١٢٩٢ هجرية الموافق ١٨٧٥ ميلادية فى أسرة متوسطة الحال ، وكان أبوه جندياً من جنود الدولة العثمانية ، منحدراً من عشيرة كردية تقطن الكركوك تسمى الجبارة ، تدّعى أنها علوية النسب ؛ أما أمه فمن عشيرة القراغول وهم بطن من شمر القاطنين فى سهول العراق .

شب معروف فوجد والداً « متديناً يصلى كثيراً ، ويقرأ القرآن كثيراً ؛ حديد المزاج ، إذا غضب أخاف ، وإذا ضرب أوجع » كما وصفه . ولا شك أن هذا الوالد كان له أثر كبير فى حياة ابنه مما أخذه من القسوة ، وما فرض عليه من تدين وقيود اجتماعية أدَّت بالرصافى إلى الثورة المتطرفة على كل ما أحاط به وبمجتمعه من قيود وتقاليد ، وإلى الإحساس بالقلق والاضطراب طول حياته التى قضاها متنقلا بين ربوع العالم العربى .

ولقد اشتغل الرصافى فى مستهل حياته بالتدريس ، وعند ما شبت الثورة فى تركيا ضد السلطان عبد الحميد الذى طالبه الأتراك بالدستور ؛ كان الرصافى من أوائل الشعراء الذين غذوا هذه الثورة بأشعارهم ، ونفخوا فى نارها بأقوالهم ، ثم ترك عمله فى العراق وسافر إلى استامبول حيث أقام أمداً طويلا .

ولقد عاد إلى العراق عام ١٩٢١ فألحقته الحكومة فى العمل بالتدريس بمدرسة المعلمين ، ثم مفتشاً للغة العربية ، ثم فى ديوان الترجمة . وقد سافر كثيراً فى هذه الفترة إلى تركيا والشام ومصر كما أصدر جريدة الأمل التى عاشت من العمر ثلاثة أشهر .

وعند ما انتخبت العراق برلمانها سنة ١٩٣٠ كان الرصافى من بين أعضائه المبرزين ، وظل عضواً مدى ثلاثة انتخابات متوالية ، كان آخرها سنة ١٩٣٧ ، ثم اعتزل العمل والسياسة بعد ذلك وألحت عليه العلة فى أواخر أيامه حتى اعتزل فى بيته إلى أن وافاه أجله عام ١٩٤٥ .

لكن شهرة الرصافى الأولى لم تكن فى ميدان السياسة أو الخطابة بقدر ما كانت فى الشعر الذى عبر به عما يختلج فى نفسه من أحاسيس وما يضطرب فى بيئته من أحداث ومشاعر ، ولقد كان يمتاز إلى جانب هذه الحساسية ودقة الملاحظة والصراحة التى تأبى الرياء بسعة فى الاطلاع على مفردات اللغة وشواردها وبمقدرة لا تدانى فى حسن استعمال تلك المفردات . وما كان الرصافى ليستطيع الصمت على ما يرى أو يحس وقد تبلغ به صراحته حد التهور والاندفاع فتراه يكتب معزياً فى وفاة الحسين فى سجل التشريفات فلا ينسى أن يقول :

وفى الثاوى لنا عظةٌ وذكرى نجدّ بها على الخلفاء وجدا
فلا نرضى لهم من بعد وعدا ولا نرعى لهم من بعد عهدا

عاهدت نفسىَ والأيام شاهدة ألا أقر على جور السلاطين

وكيف يقر على جور السلاطين من عاش حياته ثائراً على أوضاع مجتمعه ، وهو الذى عبد الحرية حتى ولو جلبت عليه سخط الجماعة :

الحر من خرق العادات منتهجاً نهج الصواب ولو ضد الجماعات

وآثر الحق ، وثار من أجله فى كل مكان :

أبى الحق إلا أن أقوم لأجله على الدهر فى كل المواطن ثائراً

وأن أتمادى فى جدال خصومه وأقرع منهم بالبيان المكابرا

ولا شك عندى فى أن أشد ألوان الباطل التى واجهها فى مستهل حياته وجعلت الدماء تفور فى عروقه كانت مظالم الأتراك واستبدادهم :

سكنّا من جهالتنا بقاعا يجور بها المؤمّر ما استطاعا

فكدنا أن نموت بها ارتياعا وهبنا أُمة هلكت ضياعا

تولى أمرها عبد الحميدِ

تنعّم فى قصورك غير دارٍ أعاش الناس أم هم فى بوارِ

فإنك لم تطالَب باعتذارٍ وهب أن المالك فى دمار

أليس بناء يلدز بالمشيدِ ؟

بل قال فيهم :

هُمْ من الناس حيث لو غُرْبِلَ النا س لكانوا نفايةً وحُثالَهْ

ومن الجهل حيث لو صور الجهـــل لكانوا بين الورى تمثاله

حمّلونا من عيشهم كل عبء ثم زادوا أصهارهم والكلاله

لكن لا يقع اللوم كله على الأتراك ، بل أهل العراق شركاء فى اللوم لأنهم مكّنوا لهم من رقابهم واستكانوا للضيم وعبشة الهوان :

ألسنا الألى كانت قديماً بلادنا بأرجائها نُور العدالة يسطعُ ؟

فما بالنا نستقبل الضيم بالرضى ونعنو لحكم الجائرين ونخضع ؟
فلو أن عير الحى يشرب مثلنا هوانًا لأمسى قالسًا يتهوع

ويمضى الرصافى بين قومه يستنهض هممهم ويوقظ نيامهم ويقرع أسماعهم كل يوم بقارعة تزعزع إيمانهم بما ألفوه من أوضاع سقيمة ، فيوماً يقول لهم :

إنما العيش للأقوى فمن ضعفت أركانه فهو فى الثاوين مختزم
والعجز كالجهل فى الأزمان قاطبة داء تموت به أو تمسخ الأمم

ويوماً يقول :

عجبت لقوم يخضعون لدولة يسوسهم بالموبقات عميدها
وأعجب من ذا أنهم يرهبونها وأموالها منهم ، ومنهم جنودها

لكنه مع ذلك ينفخ فيهم من روحه ويحاول أن يسمو بمعنوياتهم ليطالبوا بحقهم فى الحياة :

سنطلب هذا الحق بالسيف والقنا وشيب وشبان على صَبَر بَلْقِ
بكل ابن حرب كلما شد هزها بعزم من السيف المهند مشتقِّ
تراه إذا ما عبّس الموت وجهه بوجه يلاقى الموت مبتسم طلقِ
من العُرْب مطبوع الطباع على العلا بديع معانى الحسن فى الخلق والخلق

وهو يعلم أن النجاح لن يحقق إلا إذا تعلم الشعب فعرف حقوقه ، فيمضى فى دعوته إلى العلم لا ينى فى ذلك ، ويهيب بقومه لتعليم البنت ، نصف المجتمع الذى يعيش فى غياهب الجهل ، بينما هى المدرسة الأولى للناشئة :

ولم أر للخلائق من محلٍّ يهذبها كحضن الأمهاتِ
فحضن الأم مدرسةٌ تسامت بتربية البنين أو البناتِ

وأخلاق الوليد تقاس حسناً بأخـــلاق النساء الوالداتِ
فـكيف نظن بالأبناء خيرا إذا نشأوا بحضن الجاهلات

ولذلك قال الرصافى أيضاً :

هل يعلم الشرقُ أن حيـاته تعلو إذا ربّى البنات وهذّبا
من أين ينهض قائماً مَنْ نصفُه يشكو السقام بفالج متوصبا

وهكذا عاش الرصافى حياته يحمل مشعل الحرية والـكفاح والإصلاح الاجتماعى فى العراق ، ومهّد السبل لمن يأتى بعده ليستأنف الجهاد .

obeikandl.com

إذا الشعب يوماً أراد الحيـــاة فلا بد أن يستجيب القدَرْ !
ولا بدّ لليل أن ينجلى ولا بدّ للقيد أن ينكسر

واستيقظ الشعب التونسى على هذه النغمة الجديدة من أنغام الحياة التى تدعوه للإيمان بنفسه و بحقه فى الحياة إيماناً يوصله إلى الظفر بحريته والتحرر من الأغلال .

وأصاخ الشعب فى دهشة لهذا النداء الحر الجرىء الذى يدعوه إلى مجاهدة العدو القوى المستبد . . . وأنّى له أن يصاول هذا الجبار العنيد ذا القوة والجبروت والأسلحة الفتّاكة والمعدات الميكانيكية الحديثة

وازداد عجب الشعب وهو يستمع إلى هذه النذُر يوجهها على عدوّه فى جرأة غريبة على أذنيه التى ألفت أنغام العبودية . . . ينذره بالفناء العاجل والعاقبة الوخيمة عند صحوة الضعيف المظلوم ، فهناك سيجرفه سيل الإيمان وقوة الحق ونار الحقد الدفين فى الصدور . . . كلها ستقتلعه من حصونه ، وتقذف به إلى الحضيض :

ألا أيها الظالم المستبـــدّ حبيب الفناء عدوّ الحياه
سخرتَ بأنّات شعبٍ ضعيفٍ وكفّك مخضوبة من دماه
وعشت تدنّس سحر الوجود وتبذر شوك الأسى فى رباه

* * *

رويدك لا يخدعنّك الربيع وصحو الفناء وضوء الصباح
ففى الأفق الرحب هول الظلام وقصف الرعود وعصف الرياح
ولا تهزأنّ بنوح الضعيف فمن يبذر الشوك يجنِ الجراح
تأمل هنالك أنّى حصدت رؤوس الورى وزهور الأمل

وروّيت بالدم قلب التراب وأشربته الدمع حتى ثمـل
سيجرفك السيل سيل الدماء ويأكلك العاصف المشتعل

لـكن الشاعر الشاب يقسم لهم أن كل ذلك ممكن متى آمن الشعب بحقه ، وبأن هذا الحق يؤخذ ولا يمنح ، وبأن على الشعب أن يجاهد جهاداً إيجابيًّا فى سبيل الظفر به .

وتثور تونس الخضراء فى وجه الاستعمار ، وتلتف حول زعيمها الروحى أبى القاسم الشابى الذى أخذ ينشدها أناشيد الثورة والحياة التى تفيض بالقوة والعزة مستوحياً فى شعره تلك الروح السامقة التى تلهمه إياها جبال الوطن الشاهقة ؛ تلك الجبال التى عشق جمالها وهام بين سفوحها الخضراء ووديانها . وهو فى صوره الشعرية قد تحرر من أسر الماضى وعبودية التقليد ، واتجه بجمّاع قلبه ونفسه إلى الحياة ينتزع منها صوره بعد أن صقلت شاعريته بتجارب العلم والحياة فى وطنه وفى فرنسا حيث ارتحل طلبا للمعرفة فاغترف منها ما شاء إلى جانب اللهو والانطلاق ، فجاء شعره صورة صادقة لما يحسه ، وللحياة فيما حوله. فهو إذا تحدث عن جبال تونس ومراعيها نقلك سحر حديثه على أجنحة ملائكية رفيقة إلى ذلك الجمال الساحر تمتع الطرف والنفس به ساعة مع الشاعر :

أقبل الصبح جميلًا يملأ الأفق بهـاه
فتمطّى الزهر والطيرُ وأمواج الميـاه
قد أفاق العالم الحيُّ وغنى للحيـاه
فأفيـقى يا خرافى واهرعى لى يا شياه

* * *

وامرحى ما شئت فى الوديان أو فوق التلال
واربضى فى ظلها الوارفِ إنْ خفتِ الكلال

وامضغى الأعشـــاب والأفكار فى صمت الظلال
واسمعى الريح تغنى فى شمارخ الجبـــال

* * *

إن الحياة تدب فى كل ما حوله . . . فى مياه النهر فى صوت الإنسان فى أغنامه التى تمضغ الأفـكار وتفهم عند ما تهمس به نفسه . . . إنها روحه الـكبيرة العارمة تفيض على ما حوله حياة فيمضى يتحدث إلى شاته :

لك فى الغابات مرعاك ومسعاك الجميـــل
وإلى الإنشـاد والعزف إلى وقت الأصيل
فإذا طالت ظلال الـكلأ الغض الضئيـــــــل
فلهفّى نرجع المسعى إلى الحىّ الجميـــل

ويزداد شعره رقة وعذوبة حتى لتخاله روحاً لطيفاً تحوم حول الحبيب العزيز تستوحى جماله وتقدسه ، وترتل آيات سحره وفتنته ، وتنقل كل هذه الفنون إلى دنيا الناس أنغاماً تفيض طرباً وجمالا حتى ليكاد القارئ يرقص على وقعها طرباً أو يعيش فى عالمه حقًّا . . . استمع إليه واعجب معى لما تسمع :

عذبة أنت كالطفولة ، كالأحلام ، كاللحن كالصباح الجديدِ
كالسماء الضحوك ، كالليلة القمراء ، كالورد ، كابتسام الوليدِ
يا لها من وداعة ، وجمال ، وشـــــــباب منعّم أملودِ
أى شىء تراك ؛ هل أنت فينوس تهادَى بين الورى من جديدِ
أم ملاك الفردوس جاء إلى الأرض ليُحْيِ روح السلام الشهيدِ ؟
أنتِ من أنت ؟ أنت رسم جميل عبقرى من فن هذا الوجود
فيك ما فيه من جمال وعمق وغموض مقدّس معبودِ

خطواتٌ سكرانة بالأناشيد وصوتٌ كرجع نايٍ بعيدِ
وقوام يكاد ينطق بالألحان فى كل وقفة وقعود
كل شىء موقَّع فيك حتى لفتة الجيد واهتزاز النهود

ويفشل أبو القاسم فى غرامه ، لكنه شابٌّ ملء إهابه حياة وأمل ذو عزيمة من حديد لا تعرف اليأس ولا تمل من الحياة ، بل هو يعشق حياته وما فيها من جمال ، ولا يريد أن يشقى بهذا الفشل ، ولا أن يستسلم لآلام هذا الحب العنيف ؛ فنراه يصيح بقلبه ونفسه وروحه ويدعوها جميعاً لاغتنام فرصة العمر ، والابتعاد عن مواطن الحزن واليأس :

اسكتى ياجراح واسكنى يا شجونْ
مات عهد النواح وزمان الجنونْ
وأطلَّ الصباح من وراء القرونْ
فى فؤادى الرحيب معبدٌ للجمال
شيّدته الحياةْ بالرؤى والخيال
فتلوت الصلاةْ فى خشوع الظلال
وحرقت البخور وأضأت الشموع

لا . . . بل إن تونس الخضراء جميعاً فى حاجة إلى أن تعشق الحياة مثله ، وإن لها عليه حقًّا أن يوقظها من سباتها ، وأن يستثير حميّتها وينفخ فيها من شبابه وروحه . . . إنه يزأر زئير الأسد لينبه الغافل ويصحو النائم . . . إنه يأخذ بيد مواطنيه إلى منابع الحياة ومشارف النور ، ويبصِّرهم بحقهم فى الحرية والكرامة ، والعيش العزيز .

وتنطلق من قلبه الأناشيد الوطنية والملاحم الشعرية الرائعة تهزُّ قلوب مواطنيه هزًّا عنيفاً ، وتزلزل قواعد الظلم والطغيان زلزلة رهيبة ، فاستمع إليه يتدرج بمواطنيه فى القصيد من رقة الإنسام ودعة الغدير فى انسيابه اللطيف وشقشقة الطير يغرد لمشرق الصباح الجميل إلى هزيم العاصفة وزئير الأنواء .

خلقتَ طليقاً كطيف النسيم ... وحرًّا كنور الضحى فى سماه
تغرد كالطير أنّى اندفعت ... وتشدو بما شاء وحى الإله
وتمشى كما شئتَ بين المروج ... وتقطف ورد الربى فى رباه
فما لك ترضى بذلّ القيود ... وتحنى لمن كبّلوك الجباه
وتقنع بالعيش بين الكهوف ؛ فأين النشيد ، وأين الأُباه ؟
ألَا أنهض وسرْ فى سبيل الحياة فمن نام لم تنتظره الحياه
إلى النور ؛ فالنور عذب جميل ، إلى النور فالنور ظلُّ الإله

لكن السل اللعين يصيب الشاعر الشاب فيرهقه ، ويعتصر ماء الحياة فى جسده الغض ؛ وكأنه قد تحالف مع الاستعمار والظلم فى البطش بذلك الرائد الشاب . لكن الشاعر يقاوم ويناضل فى الجهتين ، ويسخر بالعدوّين ، ويود لو طال به العمر حتى يرى فجر الحرية يشرق على بلاده :

لا يطفئُ اللهب المؤجج فى دمى ... موجُ الأسى وعواطفُ الأرزاء
فاهدمْ فؤادى ما استطعتَ فإنه ... سيكون مثلَ الصخرة الصمّاء
لا يعرف الشكوى الذليلة والبكا ... وضراعةَ الأطفال والضعفاء
ويعيش كالجبّار يرنو دائماً ... للفجر . . للفجرِ الجميل النائى
النور فى قلبى وبين جوانحى ... فعلامَ أخشى السيرَ فى الظلماء
إنى أنا الغنّاءُ الذى لا تنتهى ... أنغامه . . . ما دام فى الأحياء

بل إن أبا القاسم عند ما يرثى أباه . . . لا ينوح ولا يبكى ولكنه يقدم للناس أنشودة من أناشيد الحياة تحبب إليهم الحياة وتزيدهم حرصاً عليها لحرصه هو وتعلقه بها :

ما كنت أحسب بعد موتك يا أبى ومشاعرى عمياء بالأحزانِ
إنى . . سأظمأ للحياة وأحتسى من كأسها المتوهج النشوانِ
وأعود للدنيا بقلب خافق للحب . . والأفراح . . والألحانِ
ولكل مافى الكون من صور المنى وغرائب الأهواء والأشجان
حتى تحركت المنون وأقبلت فِتَنُ الحياة بسحرها الفتّان
فإذا أنا طفل الحياة المنتشى شوقاً إلى الأضواء والألوان
وإذا التشاؤم بالحياة ورفضها ضربٌ من البهتان والهذيانِ
إن ابن آدم فى قرارة نفسه عبد الحياة الصادق الإيمان

أرأيت إلى هذا الفتح الجديد فى عالم الشعر العربى ،وهى المرثية التى لا تزخر بالتوجع والألم ، ولا تحبب الناس فى الموت والعدم ؟ أرأيت كيف يدعو الشابى قومه للحياة والتعلق بأهدابها والاستمتاع الكريم بها ؟ لكن هيهات فالداء لا يرحم وهو ينشب أظفاره فى صدر الشاعر . ويدرك أبو القاسم أنه ميت لا محالة فترى اليأس يهزم نفسه فى لحظات ، ويختلس مشاعره فى ومضات ؛ فتسمع نغما غريباً من الشاعر الفتى التى يصطبغ بصبغة فلسفية عميقة زاهدة فى الوجود . إنه يقول متأملا هذا الوجود :

نحن نمشى وحولنا هاته الأكوان تمشى
لكن لأية غايهْ ؟
نحن نشدو مع العصافير للشمس
وهذا الربيع ينفخ نايَهْ ؟

نحن نتلو رواية الكون للموت
ولكن ماذا ختام الروايهْ ؟
هكذا قلت للرياح ، فقالت :
سَلْ ضمير الوجود . . كيف البدايهْ ؟

وتغنال المنون شباب الشاعر عام ١٩٣٥ وهو لم يتعدّ السابعة والعشرين من عمره ؛ لكن وقد أحس النهاية المحتومة تدنو منه تراه لفرط شغفه بالحياة يرثى نفسه رثاء عجيباً وكأنه يود لو لقى فى العالم الآخر صوراً من دنيا الناس حتى لا يأسى على هذا الفراق :

ها أنت ذا قد أطبقتْ جفنيك أحلام المنونْ
وتطايَرَتْ زمر الملائك حول مضجعك الأمينْ
ومَضَتْ بروحك للسماء عرائس النور الحبيب
يحملن تيجاناً مذهّبة من الزهر الغريب
وتفرّق الناس الذين إلى المقابر شيّعوك
ونسوك من دنياهمو ؛ حتى كأن لم يعرفوك

لكن هناك قلباً لم ينسه ولن ينساه ؛ ذلك قلب الوالدة الحنون ، فيذكره أبو القاسم ذكر الممتن المعترف بالجميل ، ويصوّر فى أبيات رائعة تلك الأمومة الخالدة :

إلا فؤاد ظل يخفق فى الوجود إلى لقاكْ
ويودُّ لو بذل الحياة إلى المنية وافتداكْ
فإذا رأى طفلا بكاك ، وإن رأى شبحاً دعاكْ
يصغى لصوتك فى الوجود ، ولا يرى إلا بهاكْ

أعرفتَ هــذا القلب فى ظلماء هاتيك اللحودْ

هو قلب أمك . . أمك السكرى بأحزان الوجودْ

* * *

هــذا أبو القاسم الذى لم يرج إنصافاً فى حياته لأنه قد أدرك من طباع الناس أن :

الناس لا ينصفون الحىّ بينهم حتى إذا ما توارى عنهم ندموا

---

obeikandl.com